# معالم التربية الإلهية

## (نظرات قرآنية)

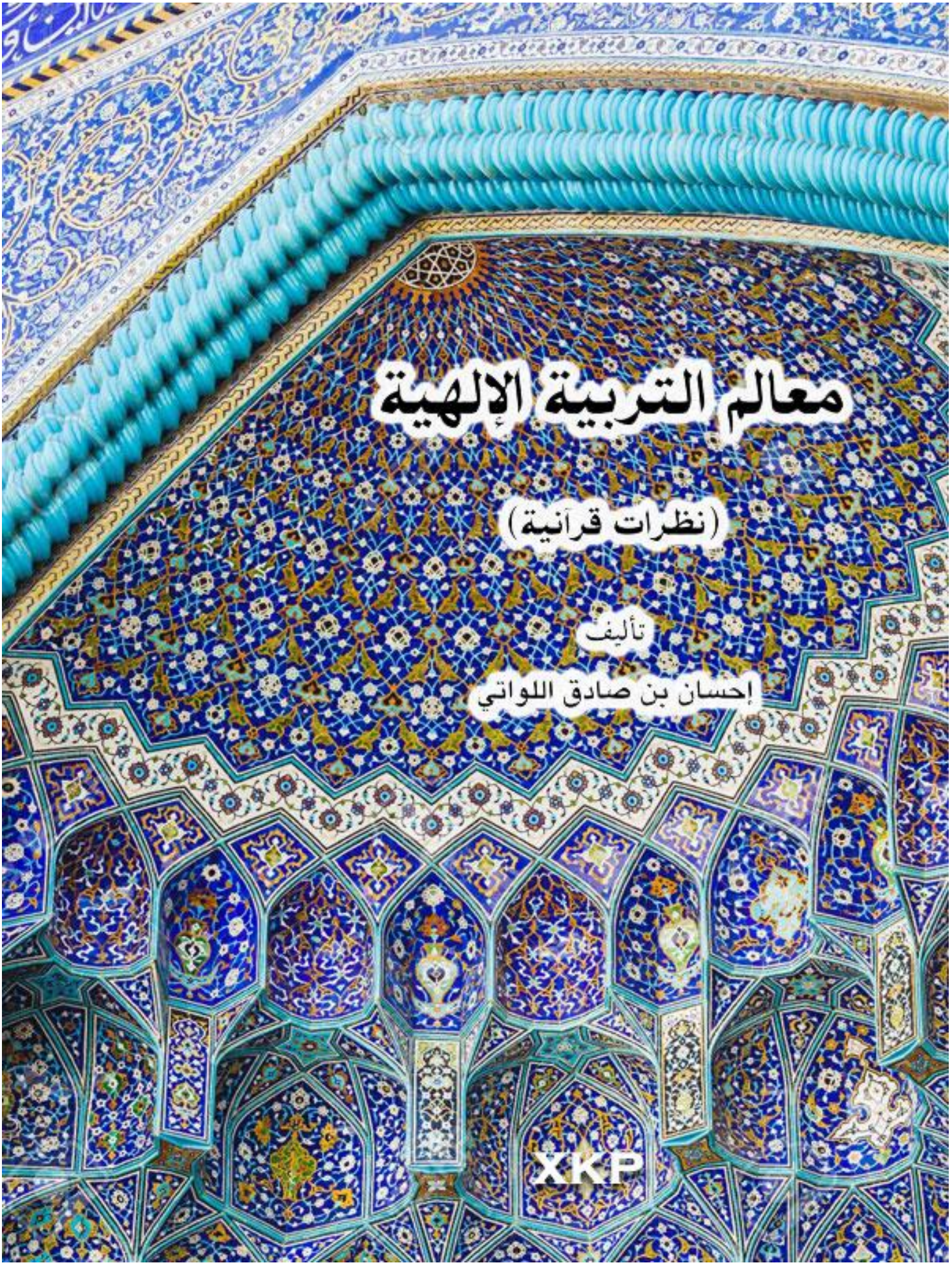
معالم التربية الإلهية
(نظرات قرآنية)
تأليف
إحسان بن صادق اللواتي
XKP

# معالم التربية الإلهية

## (نظرات قرآنية)

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير رويّة، الذي لم يزل قائمًا دائمًا، إذ لا سماءٌ ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج، ولا ليل داج، ولا بحر ساج، ولا جبل ذو فجاج، ولا فج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خَلق ذو اعتماد، ذلك مبتدع الخلق ووارثه، وإله الخلق ورازقه. وأفضل الصلاة وأحسن التسليم على سيد خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد، وعلى أهل بيته الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فيضم هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من الدروس القرآنية كنتُ قد أعددتها وسجلتها لإذاعة القرآن الكريم بسلطنة عمان وأذيعت في حلقات متتابعة في شهر رمضان المنصرم (١٤٣٨) بتوفيق من الله سبحانه وفضل، وقد رأيت أن أدوّنها وأخرجها مطبوعةً في كتاب؛ عسى أن تتسع بذلك دائرة

فائدتها بين الناس، مهما كانت هذه الفائدة قليلة ومحدودة، فيكون لي منها مزيد أجر وثواب عند الله (سبحانه وتعالى).

إنّ هذه الدروس تتمحور أساسًا حول المحور التربوي، فهي تتناول «معالم التربية الإلهية» مثلما تعرضها لنا آيات القرآن الكريم الذي هو الموعظة الإلهية الخالدة للناس، وشفاء لما في صدورهم، وفيه الهداية الكاملة والرحمة التامة لأهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، وقد قال عنه سيد الخلق محمد ﷺ: «القرآن هدًى من الضلال، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»[2]. ولا يخفى على ذوي الألباب ما في هذه الأوصاف الإلهية والنبوية للقرآن الكريم من دلالة صريحة على ضرورة أن نتخذه لنا ملاذًا ومرجعًا في شؤوننا المتنوعة، لا سيما التربوية منها؛ لكي نكون من

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٢) أصول الكافي، منشورات الفجر، بيروت، ٢: ٣٣٢.

المهتدين بهدى الله تعالى، الناجين من العمى ومن المصير إلى النار.

كلمة «التربية» جاءت، في أصلها اللغوي، من الفعل «ربا» الذي هو بمعنى نما وزاد، كما في قوله سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[1]، أي يزيدها وينمّيها. ولئن كانت الزيادة ملحوظة، بحسب الوضع اللغوي للكلمة، في الناحية المادية أساسًا - ففي القاموس المحيط: «ربوت في حجره رَبْوًا ورُبُوًا، ورَبَيْتُ رباءً ورُبِيًا: نشأتُ، وربّيتُه تربيةً: غذوتُه، كتربّيتُه»[2]- فإنّ المعنى الاصطلاحي للكلمة كان وما زال أوسع بكثير من الناحية المادية الحسية وحدها، فقد عرّف أفلاطون التربية بأنها «هي التي تضفي على الجسم والنفس كل جمال وكمال ممكن»، وعرّفها أرسطو بأنها «إعداد العقل للتعليم وكسب العلم، كما تعدّ الأرض للنبات والزرع»، وذهب أميل دوركهايم إلى كونها «عملية التنشئة الاجتماعية للأجيال الصاعدة»، واختار الدكتور إبراهيم عصمت مطاوع أنها «عملية إنماء الشخصية بصورة متوازنة ومتكاملة، أي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة «ربو».

تشمل جوانبَ الشخصية الجسدية والاجتماعية والجمالية والروحية والأخلاقية والعقلية والوجدانية»[١].

يظهر من هذه التعريفات - وهي غيض من فيض - أنّ هناك اختلافًا كبيرًا بين الباحثين في فهم مدلول «التربية»، ومجالاتها، ووظائفها، ومناهجها، وآلياتها. وهذا ليس بالأمر العجيب في مجال حساس ومهم يستأثر منذ القدم باهتمام الجميع، على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم الفكرية والروحية.

ومما يؤسف له فعلًا أن يعتني المسلمون اعتناءً عظيمًا بما يأتيهم من هذا أو ذاك من الباحثين في هذا المجال الحيوي الدقيق، من دون أن يجشموا أنفسهم عناء الرجوع إلى كتاب الله العزيز ليطّلعوا على الكنوز التربوية الكامنة فيه، ويستفيدوا من عطاءاته التي تكفل للإنسان سعادة الدنيا والآخرة. إنّ الواجب الأول عليهم يحتّم ألّا يتخذوا هذا القرآن مهجورًا. فليعودوا إليه، وليستهدوا بهدايته، ويجعلوها الأساس قبل كل

(١) التعريفات الاصطلاحية منقولة عن كتاب «أصول التربية بين الأصالة والمعاصرة» للدكتورين صبحي أبو جلالة ومحمد العبادي، مكتبة الفلاح، الكويت ٢٠٠١، ص ٢٠- ٢٧.

شيء آخر، وليس ثمة ما يمنع بعد ذلك من الرجوع إلى الأفكار والنظريات البشرية ما دامت لا تتعارض مع دلالات القرآن الكريم.

ولا تريد الدروس الموجودة في هذا الكتاب أن تدّعي لنفسها الإحاطة بكل جوانب المنهج القرآني في التربية، فبينها وبين هذه الدعوى خرط القتاد. إنها لا تعدو أن تكون «معالم» تعرض لجوانب محددة من «التربية الإلهية»، وفق دلالة آيات قرآنية مختارة، تتولى هذه الدروس عرض أهم ما فيها من جوانب وآفاق تربوية مهمة.

أسأل الله (جلّ شأنه) أن يجعل هذا العمل المتواضع مفيدًا لقرائه بدروسه وعظاته، ولكاتبه بثوابه وحسناته يوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

**إحسان بن صادق بن محمد اللواتي**
**غرة ذي الحجة ١٤٣٨هـ**
**مسقط، سلطنة عمان**
ehsansadiq@hotmail.com

# ١ - الله والتغيير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

تعرض الآية الكريمة لسنة من السنن الإلهية الكونية ذوات الارتباط الوثيق بالجانب التربوي في الإنسان، هذه السنة هي كون التغيير في الحياة البشرية مرتبطًا بتغيير داخلي في النفوس البشرية قبل أن يكون متعلقًا بتغيير خارجي إلهي للأوضاع المعيشية، بل إنّ التغيير الأول هو الذي يتسبب في الأخير، ويقود، لا محالة، إليه.

وقد فهم المفسرون الآية بنحوين مختلفين من جهة الضيق والسعة:

فأما النحو الأول، وهو المشهور المعروف عند معظم

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

المفسرين قديمًا وحديثًا، فهو أنّ التغيير الخارجي لأحوال الناس مطلقًا لا يكون إلا بتغييرهم ما في أنفسهم، بلا فارق بين أن يكون هذا التغيير الخارجي من الخير والنعمة إلى الشر والضيق، أو من الشر والضيق إلى الخير والنعمة، فالآية مطلقة وواسعة الدلالة من هذه الناحية.

وأما النحو الآخر، وهو ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي مثلًا[١]، فأنْ يقال: إنّ الآية مختصة بالحديث عن الانتقال من الخير وسبوغ النعمة إلى الشر وضيق الحال، والمعنى: أنّ الله لا يغيّر الأحوال الجيدة والنعم التي بين أيدي الناس حتى يغيّروا حالاتهم النفسية والروحية فيميلوا بها إلى الشر والانحراف. فليس للآية، بناءً على هذا، إطلاق يشمل الحالة المقابلة، وهي الانتقال من الشر إلى الخير.

وأيًا ما كان الأمر، فإنّ في الآية الشريفة دروسًا تربوية مهمة:

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ١١: ٣١٠ - ٣١١.

**الدرس الأول:**

علاقة الإنسان منا بربه ينبغي ألّا تسوء وتتوتر إذا أصيب بمصيبة ما أو ابتلي ببلاء من أي نوع في حياته، فلا يصح أن يتضايق ويتأذى من ربه، مما قد يقوده إلى التردي في هوّة السخط على القضاء والقدر الإلهيين، ولربما ينساق إلى ترك طاعة خالقه والإعراض عن عبادته. إنّ التعاليم القرآنية والروائية لتدلّ دلالة صريحة على أنّ تبدل النعمة وزوالها ونزول المصيبة مرتبط، ارتباطًا مباشرًا، بسلوك الإنسان نفسه، فبمعاصيه وجرائمه وانحرافاته يستجلب لنفسه هذه النتائج التي لا يرتضيها، فإن كان يريد أن يعتب أو يلوم فليعتب على نفسه وليلمها على ما غرسته بأفعالها وزرعته بذنوبها. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «إنّ أبي كان يقول: إنّ الله قضى قضاءً حتمًا، لا ينعم على عبد بنعمة فسلبها إياه قبل أن يحدث العبد ما يستوجب بذلك الذنب

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

سَلْبَ تلك النعمة، وذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾»[١]. هذا كله من جهة.

ومن جهة أخرى، لا يكون مقبولًا من المرء أن يعلّق اهتداءه بإرادة الله تعالى، فيسوّغ عدم التزامه ببعض الأحكام الشرعية وعدم تقيّده بجوانب من الدين بكون الله سبحانه لم يرد هدايته بعد! فهو، حسب نظره القاصر، سيهتدي حينما يريد له ربه ذلك، فهو منتظرٌ تحقّق تلك الإرادة الإلهية.

إنّ الله تعالى لا يغيّرك إذا لم تغيّر أنت ما في نفسك، والهداية الإلهية لن تشملك إنْ أنت لم تردها ولم تسعَ لنيلها: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢]. وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «هُدي من أَشعرَ قلبَه التقوى»، فالهداية ستأتي من الرب الهادي، لكن بعد أن يُشعر الإنسانُ قلبَه التقوى، ويولّد في داخله الداعي القربي الذي يجعله ينحو نحو ربه ويسعى إلى نيل رحمته ورضاه.

(١) الميزان في تفسير القرآن ١١: ٣٣١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩

**الدرس الثاني:**

تفيدنا الآية الكريمة أنّ التغيير ممكن للإنسان دومًا حينما يريده حقيقةً بصدق ويتحرك نحوه فعلًا، فلا معنى لما يتذرع به كثير منّا حين نُطالب بتغيير أنفسنا، فيجيب أحدنا: أنا هكذا، ولا يمكنني تغيير أي شيء فيّ. اقبلني كما أنا أو دعني!

بعضنا لربما يحمل في داخله إحساسًا بالضعف أمام عوامل مؤثرة في بناء شخصيته كالعامل الوراثي مثلًا أو العامل التربوي أو العامل البيئي، فيخيّل إليه أنه محكوم إلى آخر عمره بما تقتضيه هذه العوامل، من دون أن يستطيع لها تغييرًا، أو يملك قابلية الخروج من تحت سطوتها، ويجعله إحساسه هذا لا يفكر في تغيير ذاته وتعديل بعض عاداته وخصائصه وسلوكه، فيوقعه هذا في كثير من الأزمات والمواقف الاجتماعية الحرجة مع الذين من حوله، لا سيما أقرب الناس إليه، كأسرته وأصدقائه وزملائه. هذا، في حين أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «المرء حيث وضع نفسه برياضته وطاعته، فإنْ نزّهها تنزّهت، وإنْ دنّسها دنست»[1].

(١) ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، ١٠: ١٣٤.

إنه عليه السلام يجعل قياد النفس بيد الإنسان ذاته، فباختياره وإرادته يستطيع أن ينزهها مثلما يستطيع أيضًا أن يدنسها، وهذه الحقيقة مستمدة من القرآن الكريم القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1].

وتتفاقم المشكلة بنحو أخطر عند الذين يعمّمون نظرتهم السوداوية هذه لتتناول حالة الأمة أيضًا، فهم لا يرونها قادرة على تغيير أحوال ضعفها الحالي ومظاهر تخلّفها في جوانب معيّنة، وكأنّ هذه الأمة المرحومة محكومة أيضًا بأن تظل - إلى قيام الساعة - تئنّ تحت وطأة قيود الجهل والفقر والظلم والاستبداد والتفرق وغيرها من مظاهر التخلف، من دون أن تملك لها تبديلًا أو عنها تحوّلًا.

وغنيّ عن البيان ما يمكن أن تقود إليه هذه النظرة السلبية القاتمة من ركون إلى التخلف، بل انجرار إلى المزيد والمزيد منه، وتهيئة كل الظروف الملائمة لوقوع الأمة تحت نير استغلال أعدائها لها وتسلطهم عليها.

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ - ١٠.

**الدرس الثالث:**

نتعلم من الآية المباركة أيضًا أننا إن أردنا للتغيير أن يكون واقعيًا مؤثرًا فلا بد أن نبدأ من أنفسنا، لا أن ننتظر من الآخرين أن يغيّروا أنفسهم أولًا. مشكلة أناس كثيرين أنهم يظلون يؤملون من الآخرين المحيطين بهم أن يحسّنوا من أخلاقهم أو سلوكهم، من دون أن يبادروا بأنفسهم إلى تغيير ذواتهم، فالزوج يريد من زوجته أن تغيّر طريقة تعاملها معه، مثلما تنتظر الزوجة الشيء نفسه من الزوج، ولا يتحرك أيّ منهما نحو تغيير طريقته هو في التعامل مع الطرف المقابل، ومثل هذا قد يحدث بين الرئيس والمرؤوس، والشريكين، والجارين، والزميلين... وهكذا تظل الأزمات والمشكلات الاجتماعية بلا تغيير، اللهم إلا نحو الأسوأ!

إنّ المنطلق القرآني يذهب إلى ضرورة أن تكون البدأة من الذات: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وإذ ذاك فقط يمكن للمرء أن ينتظر من الآخرين أن يتغيروا، حتى إنّ عدوّك يمكن أن ينقلب وليًا حميمًا لك إذا ما رأى منك تعاملًا حسنًا وتصرفًا جميلًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[١].

والحقّ أنّ من لا يصلح نفسه لا ينبغي لنا أن ننتظر منه إصلاح غيره، فالإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «كيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه؟»[٢] ويقول كذلك: «كيف يهدي غيره من يضلّ نفسه؟»[٣].

**الدرس الأخير:**

تعلّمنا الآية أنّ التغيير الحقيقي الناجع هو ذلك الذي يبدأ من داخل الإنسان، وليس من خارجه: ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وهنا مكمن المشكلة عند غير قليل من الناس، ممن إذا وقعوا في مشكلات ما أو واجهوا ظروفًا خطيرة أو مزعجة سعوا إلى تغيير أوضاعهم من الخارج، فمن كانت عنده مشكلة معيّنة في عمله بادر إلى البحث عن عمل غيره، ومن واجه عقبة ما في بلده رأى الحل الأمثل في الهجرة والانتقال إلى بلد آخر، وهكذا قد يحسب بعضنا أنّ علاج مشكلته يكمن في الانتقال

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٤ - ٣٦.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، أبو الفتح الآمدي، ص ٣٦٣.
(٣) نفسه.

إلى دار جديدة للسكنى، أو في البحث عن زوجة جديدة، أو استبدال بعض موظفيه أو ما شابه ذلك كله.

إنّ حقيقة التغيير ماثلة في أن يغيّر الإنسان داخله، بأن يغيّر من نظرته إلى نفسه وإلى الحياة والآخرين؛ ذلك أننا «إذا رغبنا في إجراء تغيير جوهري وكمي، فإنه يتعين أن تنصبّ جهودنا على تصوراتنا الذهنية الأساسية[١]. المثال الواضح على هذا هو ذلك الفارق الهائل الذي يطرأ على طريقة تعامل الإنسان مع الحياة كلها فيما إذا تغيرت نظرته المادية غير الإيمانية إلى نظرة روحية إيمانية، فهذا التغيير كفيل بجعله يعي أنّ نفسه قد شرّفها الله تعالى وكرّمها وخلقها لغير شهوات هذه الدنيا الفانية، وسيجعله هذا، بلا ريب، يغيّر من سلوكه ويوجّه أفعاله وتصرفاته غير الوجهة الشهوية التافهة، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته»[٢].

وما ينطبق على هذا المثال الذي هو في طبيعته شاسع وواسع، ينطبق أيضًا على مشكلاتنا الصغرى التي يكمن حلّها

(١) العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ستيفن ر. كوفي، ص ٤١.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ١٤٧.

في تغيير نظرتنا إليها وإلى طريقتنا التي نتعاطى بها معها، «وتكون الطريقة التي نرى بها الأشياء هي المصدر للطريقة التي نفكر بها والطريقة التي نتصرف بها»[١].

(١) العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ص ٣١.

## ٢ - الجهل البشري

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

من معالم التربية القرآنية الواضحة في آيات متعددة، إفهامُ هذا الإنسان أنّ الله سبحانه لا يطلب منه ولا يأمره إلا بما فيه له كل خير؛ فالله تعالى حكيم، والحكمة تقتضي عدم طلب شيء جزافًا وبلا غاية، وبما أنه سبحانه الغني بذاته الذي لا نقص فيه ليحتاج إلى استكمال فلا بد أن تكون هذه الغاية راجعة إلى مخلوقاته وليس إليه (جلّ وعلا). على الإنسان أن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

يوقن بهذا؛ لتطمئن نفسه ويستريح وجدانه إلى أنّ كل ما يريده ربه منه لن يكون فيه بالنتيجة، وإنْ خفي ذلك عليه، إلا صلاحه وسعادته. وفي مقابل هذا، على الإنسان أن يلحظ أنّ علمه محدود جدًا، وأفقه ضيق؛ لذا قد يحب بعض الأشياء التي ليست في مصلحته، وقد يكره أشياء أخرى وهي صلاحٌ وخيرٌ له.

الآية التي هي محل كلامنا هنا تتعلق بتشريع القتال، والفعل «كُتب» في أولها هو من الكتابة التي تعني هنا الفرض والإيجاب، فالله سبحانه قد فرض وأوجب علينا القتال في سبيله مع علمه بأنّ نفوسنا تكرهه ولا تميل إليه، لكن كراهة النفس أو حبها لشيء ما ليس هو الملاك الإلهي في التشريعات السماوية؛ ذلك أنّ الكراهة لربما تتعلق بشيء هو خير للإنسان، مثلما قد تتعلق المحبة، في الجانب المقابل، بشيء ما هو، في واقعه وحقيقته، شر ومفسدة.

وتبيّن خاتمة الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنّ السبب في هذه الحالة الغريبة إنما هو راجع إلى جهل الإنسان؛ فجهله يجعله لا يستقيم في سيره، ولا ينضبط في تحقيق ما هو خير له، مما أراده الله تعالى له، بل يقوده إلى

معاداة ما يجهله، مثلما ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[١].

إنّ هذا الجهل الذي يجعل الإنسان يكره ما هو خير له، ويحب ما هو شر له، على أنواع:

### النوع الأول: الجهل بالمصلحة أو المفسدة

وهذا أبرز الأنواع وأكثرها شيوعًا، فالإنسان كثيرًا ما تخفى عليه وجوه المصالح والمفاسد في الأشياء، فتراه عندئذ قد تملكته الحيرة واقتادته الجهالة في متاهات لا تجديه نفعًا. قد يحدث هذا في القضايا التشريعية، كما في قضية تشريع القتال التي هي قضية الآية الكريمة محل كلامنا، كما قد يحدث أيضًا في القضايا التكوينية، ومثال ذلك ما ذكره القرآن الكريم في العلاقة الزوجية: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

إنّ الأساس في ذلك هو أنّ الإنسان ينساق لرغباته ومشتهيات نفسه بنحوٍ جارف شديد، فيحول هذا بينه وبين أن

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٦٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

يرى مصالحه ومفاسده الواقعية، وإن كانت مما لا ينبغي أن يخفى عليه، لولا ضغط الهوى وغرور الشهوة؛ لذا قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الجاهل من انخدع لهواه وغروره»[1].

## النوع الثاني: الجهل بالأهم

قد يعلم الإنسان أحيانًا ببعض المصالح أو المفاسد الموجودة في أشياء معيّنة، لكنه يجهل بمصالح أو مفاسد أهم منها وتكون راجحة عليها، فحاله في ذلك حال مَن قيل فيه:

يا أيها المدّعي في العلم معرفةً

حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياء

في مورد الآية الكريمة ذكر بعض المفسرين أنّ من الوجوه التي يُوجّه بها كره القتال في سبيل الله أنّ من المؤمنين مَن كان يحسب أنّ المصلحة الدينية إنما تكمن في التعامل مع الكفار بالرحمة والرأفة والدعوة الحسنة إلى دين الله تعالى، فلعلهم يهتدون ويدخلون في دين الله أفواجًا دونما حاجة إلى إزهاق

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٥٥.

النفوس وإراقة الدماء. هؤلاء المؤمنون جهلوا أنّ المصلحة الدينية الأهم إنما هي في الجهاد والقتال، «فإنّ الله - وهو المشرّع لحكم القتال - يعلم أنّ الدعوة غير مؤثرة في تلك النفوس الشقية الخاسرة، وأنه لا يعود من كثير منهم عائد إلى الدين ينتفع به في دنيا أو آخرة. فهم في الجامعة الإنسانية كالعضو الفاسد الساري فساده إلى سائر الأعضاء، الذي لا ينجع فيه علاج دون أن يقطع ويرمى به»[١].

إنّ كثيرًا من الناس يدركون بعض وجوه المصالح والمفاسد الموجودة في بعض الموارد، فيتوهمون أنّ ما يدركونه هو كل شيء؛ لذا تراهم يعترضون على بعض الأحكام الشرعية، أو يقفون منها موقف التشكيك في أقل تقدير، فتجد قائلًا يقول: لماذا حرّم الإسلام الاستماع إلى الغناء، مع ما فيه من تهدئة للأعصاب وإراحة للنفس؟ وتسمع آخر يقول: كيف يمنع الشرع من لعب الورق وسائر ألعاب القمار إن كان اللعب بها بلا رهان ولا شرط مال؟ أليس هذا منعًا لوجه من وجوه الاستجمام النفسي والاجتماعي البريء؟ ولن تعدم أيضًا من يعترض على حرمة الربا، ووجوب

(١) الميزان في تفسير القرآن ٢: ١٦٥.

الحجاب على المرأة، ونصيبها في الميراث، وحدّ المرتد عن الدين. . . إلخ.

مشكلة هؤلاء أنهم لا يستثيرون في أنفسهم - ولو في مستوى مجرد الاحتمال - إمكانية أن تكون ثمة مصالح أو مفاسد قد غابت عن وعيهم ولم يدركوها. والأدهى أنهم لا يستحضرون حقيقة كون الإنسان منا لا يعرف كل شيء عن نفسه، فلعل هناك أيضًا مصالح ومفاسد ترتبط بتلك الجوانب التي ما زلنا نجهلها عن ذواتنا، وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه»[1].

## النوع الثالث: الجهل بثقافة الصبر

ثمة أناس قد يعلمون بوجوه كثيرة للمصالح والمفاسد، ويعلمون أيضًا بأنّ أيّها أهم، لكن مشكلتهم أنهم لا يصبرون ولا يتحملون، فثقافة الصبر مجهولة عندهم، وغائبة عن حيواتهم.

إنهم لا يصبرون على بعض المشقة والتعب في بعض

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٥٧.

التشريعات كالجهاد والصوم والحج مثلًا، ولا يتحملون التنازل - في سبيل أداء بعض الواجبات الشرعية - عن بعض مشتهياتهم من مال أو منصب أو استقرار أو شهرة مثلًا.

ولو أنهم ثابوا إلى رشدهم، وحكّموا عقولهم، لوجدوا أنهم يضيّعون على أنفسهم خيرًا كثيرًا نتيجة عدم صبرهم، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «في الصبر على ما نكره خير كثير»[١]، وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «بالصبر تدرك الرغائب»[٢].

## النوع الرابع: الجهل بزاوية النظر الصحيحة

ربما يكون كره الإنسان لما هو خير له، وحبه لما هو شر له، ناشئين من خطئه في اختيار الزاوية التي ينبغي أن ينظر إلى الأمور منها. فهو في الغالب ينظر من زاوية مصلحته المباشرة؛ استجابةً لمطامعه، وارتهانًا لمناه وانخداعًا بها، فكل ما لا يرى فيه مصلحة مباشرة له فإنه يكرهه، وكل ما يراه ذا فائدة مباشرة فإنه يحبه، فيكون كما قال الإمام علي بن أبي

(١) نفسه ٥: ٢٥٧.
(٢) نفسه ٥: ٢٥٩.

طالب عليه السلام : «إنّ قلوب الجهّال تستفزها المطامع، وترهنها المنى، وتستعلقها الخدائع»[١].

وصاحب هذه النظرة الضيقة قد تخفى عليه فائدة وجود كثير من المخلوقات في هذا الكون، إذ لا يجد لها فائدة مباشرة تعود عليه منها، بل قد يرى بعضها من الشرور، كالزلازل والبراكين والثعابين والعقارب مثلًا. ويبدو أنه نسي أو غفل عن أن ينظر إلى الكون كله بوصفه كلًا متكاملًا، فكل جزء منه له فائدته الخاصة حين ننظر إليه في موضعه، وهو في ذلك الموضع بالذات يشكّل كمالًا لا نقصًا، وإن لم تكن منه فائدة مباشرة للإنسان، بل قد يكون ثمة ضرر، لكن باجتماع الأجزاء كلها في مواضعها الخاصة بها يتكوّن هذا الكون البديع الجميل الذي يحقّق مصلحة الإنسان بلا شك ولا ريب. وهذا بالنتيجة معناه أنّ مصلحة الإنسان قد تتحقق أحيانًا بصورة غير مباشرة، فمن الخطأ وقصور النظر أن يتوقع المرء وجود مصلحة مباشرة له في كل شيء.

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٥٧.

## النوع الأخير: الجهل بثقافة الانتظار والتريّث

وصف القرآن الكريم حب الإنسان للعجلة بطريقة كنائية مؤثرة إذ قال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[١]، وهذه «كناية عن بلوغ الإنسان في العجل كأنه خُلق من عجل ولا يعرف سواه، نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله وخُلق من خير أو من شر، وهو أبلغ من قولنا: ما أعجله! وما أشد استعجاله! والكلام وارد مورد التعجيب»[٢]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٣].

هذا معناه أنّ الإنسان ذو طبيعة ميّالة إلى العجلة والسرعة، ويجهل قيمة ثقافة التأني والتريّث والتمهّل إلى حين استواء الأمور وتأتّي الظروف المناسبة، وبذا يميل بطبعه إلى الأخذ بكل ما يراه أمامه وإن لم تكن له فيه مصلحة حقيقية، ويكره أن ينتظر شيئًا وإن كانت فيه مصلحته؛ لذا ورد أنّ الإمام أمير المؤمنين عليًا عليه السلام سأل ابنه الحسن عليه السلام فقال: «يا بنيّ... ما الجهل؟ فقال: سرعة الوثوب على الفرصة قبل

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٤: ٢٨٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١.

الاستمكان منها والامتناع عن الجواب. . . »[١].

وللإمام علي عليه السلام تشبيه جميل في هذا المجال ورد فيه: «ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه»[٢]. نعم، فمثلما لا يستفيد الزارع الذي يتعب نفسه بالزراعة في أرض غيره شيئًا من الثمار، فهي كلها تذهب لصاحب الأرض، فكذلك الشخص الذي يحاول أن يجتني الثمرة قبل مجيء وقت نضجها وإيناعها، هذا أيضًا لن يحصل على الثمرة المرجوة ولن يغنم شيئًا.

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٥٨.
(٢) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ٥، ص٥٢.

## ٣ - اتّباع الهادي للحقّ

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

جاءت هذه الآية الشريفة في سياق آيات تعلّم النبي الأكرم محمدًا ﷺ كيفية الحوار والنقاش مع المشركين، فهي تريد منه أن يسألهم: هل يعلمون في جملة أولئك الذين اتخذوهم شركاء مع الله تعالى من هو قادر على هدايتهم إلى الحق؟ وهذا سؤال يخاطب جانب التصديق من عقولهم، إذ أنّ هذه العقول تعلم جيدًا أنّ الإجابة الصادقة عن السؤال هي بالنفي قطعًا. وبما أنّ الإجابة واضحة ولا تقبل الإنكار ولا

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

التردد، فقد أراد الله من نبيه أن يبادر على الفور إلى القول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾، نعم فالله سبحانه هو الكفيل بهداية كل شيء إلى مقاصده التكوينية وما يحتاج إليه في بقائه، كما يهدي الإنسانَ إلى السعادة في دنياه وأخراه.

وإذا شاء سائل أن يسأل: لماذا حصرت الآية الهداية في الله تعالى، مع أننا نعلم أنّ هناك غيره ممن يهدي أيضًا، كالأنبياء والمرسلين والأئمة والعباد الصالحين؟

فإنه يجاب بأنّ المراد من الهداية هنا الهداية بالأصالة، وهذه لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، فالهداة الآخرون المذكورون إنما تكون هدايتهم بالتبع، أي بتبع هداية الله جلّت قدرته، ولولا الهداية الإلهية لما استطاعوا أن يهدوا أحدًا من أساس. ويمكن أن يجاب أيضًا بأنّ الهداية المعنيّة في الآية هي بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وهذه راجعة إلى الله، وليست بمعنى إراءة الطريق التي يمكن أن يتولاها أي أحد[1].

ومهما كان من شيء، فإنّ الآية تطالب النبي ﷺ بإثارة سؤال جديد، بعد ذلك، فيسألهم: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ

(١) يراجع التفسير الأمثل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ٦: ٢٤١.

أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾، وهذا سؤال يرتبط بجانب التصور، أي يهدف إلى تعيين المفرد، فمن في نظرهم أحق بالاتّباع؟ الله تعالى الذي يهديهم إلى الحق أم الشركاء الذين لا يمتلكون الهداية لأنفسهم وينتظرونها أن تأتيهم من غيرهم؟

وذكر بعض المفسرين[١] أنّ في «يَهِدّي» ست قراءات مختلفة، وهذه القراءة المثبتة في المصاحف هي من الفعل «يهتدي»، قُلبت التاء دالًا ثم أدغمت في الدال الموجودة، فوُجدت الدال المشددة.

وتختتم الآية باستفهام جديد، تعجيبي هذه المرة: ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، إنّ أمركم أيها المشركون لعجب! تدركون جيدًا أنّ شركاءكم أعجز من أن يهدوا أنفسهم فكيف يستطيعون أن يهدوكم أنتم؟ ومع هذا تتخذونهم شركاء لله تعالى الذي هو الهادي إلى الحق! ألا ينبغي أن تتعجبوا من حالتكم هذه؟

ولنا في الآية الشريفة محطات توقّف للفائدة:

(١) يراجع مثلًا التفسير الكبير للفخر الرازي، ٨: ٣٥٥.

**المحطة الأولى:**

لجأت الآية المباركة إلى تنويع أسلوبي جميل في بيانها: فقد بدأت بسؤال عن التصديق ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم . . .﴾، وأتبعته بجملة خبرية ثبوتية ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، ثم هناك استفهام عن التصور ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾، وأخيرًا ثمة استفهام تعجيبي ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

إنّ هذا التنويع لكاشف، من جهة، عن مدى السعي القرآني لإقناع هؤلاء المشركين وهدايتهم إلى الحق. ثم هو دالّ، من جهة أخرى، على أهمية اللجوء إلى أساليب متنوعة وطرائق مختلفة في دعوة الآخرين إلى الطريق القويم.

وحقًا أنّ القرآن الكريم هو خير واعظ، كما قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عنه: «وإنّ الله سبحانه لم يعظ أحدًا بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره»[1]، فجدير بالمسلمين جميعًا أن ينتفعوا من طرائقه وأساليبه في الوعظ، مثلما قال الإمام علي عليه السلام أيضًا: «انتفعوا ببيان الله،

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦، ص ٢٥٤.

واتعظوا بمواعظ الله، واقبلوا نصيحة الله»[١]، ومثلما روي عن ولده عن ولده الإمام الحسن عليه السلام أيضًا: «أيها الناس، إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلًا هُدي للّتي هي أقوم، ووفقه الله للرشاد، وسدده للحسنى»[٢].

نعم، ينبغي للمسلمين أن يتعلموا من الوعظ القرآني أنّ عليهم ألّا يجعلوا لليأس سبيلًا إلى قلوبهم حينما يحاولون تربية الآخرين ودعوتهم إلى ما فيه صلاحهم وهداهم، فعليهم أن يصبروا ويصابروا ويتحملوا، فعسى أن يكتب الله لهم بعد الصبر فرجًا، وبعد نكوص الآخرين وتكذيبهم إقبالًا وتصديقًا.

ثم على المسلمين ألّا ينسوا ضرورة تجربة أساليب متنوعة في تربية الآخرين وإرشادهم، فالناس بطبائعهم متفاوتون، وفي قابلياتهم متنوعون، فلعل أسلوبًا معيّنًا من أساليب التربية يجدي مع بعضهم ولا يجدي مع آخرين، ولعل أسلوبًا يكون ناجعًا في زمان ما أو في مكان معيّن، ولا يكون كذلك في غيرهما، فمن غير الحكمة، إذًا، أن يتمسك المربي بأسلوب

(١) نفسه.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٥٦٣.

واحد وطريقة فاردة لا يعرف غيرهما، وهو إن فعل ذلك سيكون قد حكم على جهده بالضياع عبثًا دونما طائل.

**المحطة الثانية:**

تصرّح الآية الكريمة بأنّ الاتّباع ينبغي أن يقوم على أساس طلب الاهتداء فحسب؛ لذا كان الهادي إلى الحق أحق بالاتّباع: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، ولا فرق هنا بين أن يكون الاتّباع لفرد أو لخط أو فكر ما أو لجهة معيّنة، فالمناط والمقياس في ذلك أن يكون المسلم باحثًا عن الهداية وعمّن يسلك به سبيلها ويوصله إليها.

لا معنى، بناءً على هذا، لأنْ يكون الاتّباع مبنيًا على أساس التعصب الأعمى في أية صورة من صوره الكثيرة، سواء أكان تعصبًا لدين أم لمذهب أم لانتماء قبلي أو وطني أو عرقي معيّن، وفي الروايات الشريفة تحذير أكيد من ذلك، فمثلًا:

- الرسول ﷺ: «من كان في قلبه حبة خردل من عصبيّة بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[1].

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣٣٤.

- الرسول ﷺ أيضًا: «من تَعصّب أو تُعصّب له فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[١].

- الإمام الصادق عليه السلام: «من تعصّب عصبه الله عز وجل بعصابة من نار»[٢].

إنّ أخطر ما في التعصب الأعمى أنه قد يوقع المرء في معصية خالقه؛ نتيجةً لاتّباعه الأخرق لمن تعصّب له، ويعرض القرآن الكريم لنا صورة تحذيرية من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[٣]، وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «من أرضى سلطانًا بما يسخط الله، خرج من دين الله عز وجل»[٤]، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق»[٥].

وكفى بالتعبير بالخروج من دين الله أو نفي الدين دلالةً

(١) نفسه.
(٢) نفسه ٦: ٣٣٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٧، ٦٨.
(٤) ميزان الحكمة ٥: ٥٧١.
(٥) نفسه.

على مدى الأهمية التي يوليها الإسلامُ القضيةَ، ومبلغ الخطورة التي ينظر بها إليها.

**المحطة الأخيرة:**

ثمة ملحوظة أسلوبية تتعلق باستعمال الآية الشريفة لصيغة أفعل التفضيل «أحقّ»، فمن المعلوم أنّ هذه الصيغة تُستعمل في اللغة العربية حينما يكون هناك اشتراك بين شخصين مثلًا في صفة ما، وتكون هذه الصفة أقوى وأظهر في أحدهما، فقولنا: «محمد أعلم من حسن» معناه أنّ الرجلين يشتركان في صفة العلم، ومحمد يتصف بها بنحو أقوى. لكن الملاحظ في الآية أنّ صيغة أفعل التفضيل استعملت على غير هذا الوجه، فاتّباع الله سبحانه هو الاتّباع الحق على وجه الحصر، وليس اتّباع المعبودين الآخرين حقًا أصلًا، أي أنّ الطرفين (اتّباع الله واتّباع المعبودين) لا يشتركان في صفة الحق، فكيف إذًا صحّ، من الجهة الأسلوبية، أن تقول الآية: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾؟

يمكن أن يجاب عن السؤال بأن يقال: إنّ صيغة أفعل التفضيل ليست هنا مستعملة في معناها الشائع الذي تقدمت الإشارة إليه، بل استعملت لمعنى آخر تأتي له في الكلام

العربي أحيانًا، وخلاصته «أن يراد به أنّ شيئًا زاد في صفة نفسه، على شيء آخر في صفته، فلا يكون بينهما وصف مشترك، كقولهم: العسل أحلى من الخل، والصيف أحرّ من الشتاء، والمعنى: أن العسل زائد في حلاوته على الخل في حموضته، والصيف زائد في حره على الشتاء في برده»[١]. وبناءً على هذا المعنى يمكن أن يقال: إنّ الآية تفيد أنّ اتّباع الله سبحانه هو وحده الحق، وليس اتّباع غيره من المعبودين بحق أصلًا، وبهذا يندفع الإشكال.

لكن العلامة الطباطبائي (قدس سره) اختار إجابة أخرى عن السؤال، هي أوقع في النفس وأدلّ على بلاغة القرآن الكريم وحكمته العميقة في التحاور والدعوة. وخلاصة هذه الإجابة أنّ القرآن سعى، بأسلوبه التعبيري هذا، إلى عدم إثارة عصبية القوم وتهييج جهالاتهم؛ لذا لم يواجههم بأسلوب مباشر صريح بحقيقة كون آلهتهم تلك ضلالًا وانحرافًا[٢]. ولو أنه صرّح لهم بذلك لما وجد منهم سوى النفور والصدود والإعراض، ولكان ذلك تضييعًا للهدف الذي يسعى إليه وهو أن يكون كتاب هداية وإرشاد للناس.

(١) شذا العرف في فن الصرف، الشيخ أحمد الحملاوي، ص ٨٦.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٠: ٥٧.

إنّ في هذا الأسلوب القرآني دعوة لنا إلى الحوار الهادئ الموضوعي مع الذين نختلف معهم في الآراء والتوجهات الفكرية، ذلك الحوار الذي يبتغي الوصول إلى الحق، ويتجنب تمامًا استثارة العصبيات المبعدة عن الموضوعية والإنصاف؛ لذا نجد الروايات الشريفة تؤكد أيضًا أهمية أن يترافق مع الفكر الحسن كلامٌ حسن؛ كي يندغم الشكل والمضمون الحسنان معًا في وحدة واحدة تؤتي أكلها

كل حين بإذن ربها، فعن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عوّد لسانك حسن الكلام تأمن الملام»[١]، وورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم»[٢]. نعم، لا يكفي أن تقولوا لهم كلامًا حسنًا، بل عليكم أن تنتقوا أجمل العبارات والألفاظ التي تحبون أن يستعملها الآخرون معكم. هكذا هو الإسلام العظيم في عظمة حرصه على سلامة الألسن ونظافة القلوب، ومن ثَمّ تحقيق الهدى والاستقرار الاجتماعي.

(١) ميزان الحكمة ٨: ٤٥١.
(٢) نفسه ٨: ٤٥٠.

# ٤ - الجانب العميق من أعمالنا

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾[١].

موضوع الآية الكريمة مرتبط بـ «البُدْن» المذكورة في الآية السابقة: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، وهي الإبل السمينة التي تُجعل من الأضاحي في الحج، فهذه الآية تفيد أنّ تلك البدن لن تنال لحومُها ودماؤها اللهَ تعالى، والمراد من «النيل» نيل مقام القرب منه (جلّ وعلا)؛ ذلك أنّ الأهم عنده سبحانه هو حالة التقوى التي ينطلق منها الإنسان في أعماله.

والآية - كما ذكر العلامة الطباطبائي[٢]- جاءت لتردّ على نمطين من الناس:

(١) سورة الحج، الآية: ٣٧.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٤: ٣٧٥

أ - نمط سطحي التفكير يرى أنّ الله تعالى ينتفع بلحوم هذه الإبل ودمائها!

ب - نمط آخر يسأل: إذا كان الله لا ينتفع بلحومها ودمائها لكونه منزهًا عن الجسمية وكل متعلقاتها وآثارها، فلماذا إذًا يطلبها ويريدها من الناس؟

فالآية تجيب بأنّ الله سبحانه لا ينتفع بلحومها ودمائها، لكن هناك صفة معنوية (التقوى) تنفع من يتقرب إليه بها، وهي تناله عزّ وجلّ، وتقرّب صاحبها منه.

ولنا مع الآية وقفات:

**الوقفة الأولى:**

أعمالنا كلها لها جانبان اثنان: جانب سطحي خارجي يتمثل في الأفعال والحركات التي نأتي بها بجوارحنا وأعضائنا، وجانب آخر عميق داخلي، هو عبارة عن الأبعاد النفسية والروحية التي تصحب تلك الأفعال الخارجية. ففي مورد الآية الشريفة ورد عن أبي بصير أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن علة الأضحية، فأجابه الإمام بقوله: «إنه يغفر لصاحبها عند أول قطرة تقطر من دمها إلى الأرض،

وليعلم الله من يتّقيه بالغيب، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾، ثم قال: انظر كيف قبل الله قربان هابيل، وردّ قربان قابيل»[1].

ذبح الأضحية أو نحرها هو الفعل الخارجي المطلوب من المسلم أن يأتي به، لكنه ليس كل شيء، فلا بد من التقوى، فهي التي بسببها قبل الله ما قدّمه هابيل وردّ ما قدّمه قابيل، مع أنّ فعلهما الخارجي في تقريب القربان كان واحدًا. وغنيّ عن البيان أنّ تعبير الإمام عليه السلام: «وليعلم الله من يتقيه بالغيب» ليس المراد به سوى ظهور ذلك وبروزه في الواقع الخارجي، وإلا فالله تعالى يعلم المتقي وغير المتقي من عباده من قبل أن يخلقهما.

وتدلّ الروايات الشريفة الواردة عن النبي وآله الطاهرين على أنّ هذا الجانب العميق الداخلي ليس منحصرًا في الواجبات والمحرمات من الأفعال فقط، فهو موجود في المستحبات والمكروهات والمباحات أيضًا، فلجميعها آثار نفسية وانعكاسات روحية لها نتائج تربوية لا يمكن التهاون بشأنها والتغافل عنها بحال من الأحوال. ففي الجانب السلبي

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ٢: ١٤٤، الباب ١٧٨.

نجد مثلًا الحديث النبوي الشريف: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب»[١]. وفي الجانب الإيجابي ثمة مثلًا الحديث المروي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «لقاء أهل الخير عمارة القلب»[٢]. الحديثان الشريفان تحدثا عن فعلين إنسانيين غير داخلين في دائرة الواجب أو دائرة الحرام (كثرة الكلام بغير ذكر الله ولقاء أهل الخير)، ومع هذا فقد ارتبطا - في جانبهما العميق - بقسوة القلب وعمارته، وهو جانب لا يملك أي عاقل أن يقلل من شأنه أو أن يتهاون في أمره.

**الوقفة الثانية:**

يركّز الإسلام في تعليماته كثيرًا على أنّ الشعائر العبادية (في الحج وغيره) لا بد أن تُوجّه نحو هدفها الأصلي (التقوى)، فهذا هو الذي يحقق الغرض الجوهري منها ويمنحها قيمتها الحقيقية ويحقق علّتها، فعن فضل بن شاذان عن الإمام علي الرضا عليه السلام في بيان علة العبادة: «فإن قال:

(١) ميزان الحكمة ٨: ٢٣٩.
(٢) ميزان الحكمة ٨: ٢٤٦.

فلم تعبّدهم؟ قيل: لئلا يكونوا ناسين لذكره، ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تُركوا بغير تعبّد لطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»[١].

ولولا الانتباه إلى التقوى والتوجه نحوها، لتحولت عباداتنا كلها إلى طقوس شكلية وقشور خارجية لا يُرتجى منها أي نفع لشخصياتنا أو تربية لذواتنا، وهذا ما يجعل الكثيرين منّا يقعون في التناقضات والمفارقات العجيبة، فترى أحدنا حريصًا على الإتيان بصنوف العبادات وأشكالها المتنوعة، المستحبة منها فضلًا على الواجبة، ولا يرضى لنفسه أي تقصير في ذلك أو تهاون، لكنه في تعامله في بيته أو عمله أو علاقاته المختلفة مع الناس من حوله تراه بعيدًا جدًا عما تتطلبه التقوى ويقتضيه التدين الحقيقي، فلا مانع عنده يمنعه من الوقوع في الحرام، ولا رادع يردعه عن تخطي حدود الله والتعدي على حقوق العباد. وعن مثل هذا الإنسان ورد عن النبي ﷺ قوله: «العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل»[٢]، وقوله ﷺ

(١) نفسه ٦: ١٠.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٢٣.

أيضًا: «من اكتسب مالًا حرامًا لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقًا ولا حجًا ولا اعتمارًا، وكتب الله عز وجل له بعدد أجر ذلك أوزارًا، وما بقي بعد موته كان زاده إلى النار، ومن قدر عليها فتركها مخافة الله عز وجل دخل في محبته ورحمته، ويؤمر به إلى الجنة»[١].

أجل، للعبادة لذة خاصة، لا يستشعرها إلا أولئك الذين قاربوها بتقواهم، أما من كان عابدًا هواه ومخالفًا أمر مولاه فهيهات أن يجد شيئًا منها؛ لذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كيف يجد لذة العبادة من لا يصوم عن الهوى؟»[٢].

إنّ العبادة - بكل أشكالها وتجلياتها المختلفة - تحريك للجوارح الخارجية كيما يتحرك القلب ويحيا بالتقوى؛ لهذا عبّر الإمام الصادق عليه السلام بكون الحركة الأخيرة «أبلغ»، في قوله: «القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من القصد إليه بالبدن، وحركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال»[٣].

(١) نفسه ٦: ٢٤.
(٢) نفسه ٦: ٢٧.
(٣) نفسه ٨: ٢١٨.

## الوقفة الأخيرة:

«دماؤها» المذكورة في الآية الشريفة إشارة إلى عادة كان العرب في زمن جاهليتهم يتّبعونها في حجهم، وهي أنهم كانوا يلطخون جدران الكعبة، بغرض التبرك، بدماء حيواناتهم المذبوحة أو المنحورة. فلمّا جاء الإسلام حاول بعض المسلمين أن يفعلوا ذلك، فنزلت الآية لتنهاهم، روي «أنّ الجاهلية كانوا إذا نحروا لطّخوا البيت بالدم، فلمّا حج المسلمون أرادوا مثل ذلك، فنزلت»[١].

تفيد الآية الشريفة، بناءً على ما تقدم، أنّ على المسلم أن يكون حصيفًا وحازمًا في التعامل مع العادات الاجتماعية التي لا تنسجم مع التعليمات الدينية وقد تتعارض معها، فعليه ألّا ينقاد لها ولا يستجيب لها، مهما كانت الضغوط الاجتماعية قوية عليه، فهذا نحو من أنحاء تربية الذات المطلوبة من المسلم، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أيها الناس، تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[٢]. بل لقد ذهب الإمام عليه السلام إلى أبعد من هذا حين

(١) تفسير نور الثقلين ٥: ٤٠.
(٢) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الحكمة ٣٥٩، ص ٥٣٨.

جعل التعامل الإيجابي الفاعل مع العادات أفضل العبادة: «أفضل العبادة غلبة العادة»[١].

حقًا أنّ تغيير العادات ليس بالأمر الهيّن، وهذه حقيقة اعترف بها الإمام علي عليه السلام نفسه: «أصعب السياسات نقل العادات»[٢]، لكن من الحق أيضًا أنّ هذا التغيير يستحق كل ما يبذل في سبيله من جهود وطاقات وأوقات؛ إذ أنّ تحوّل العادة السيئة إلى عادة حسنة يحقق للمرء خير الدنيا والآخرة، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا أنه قال: «عوّد نفسك الجميل، فإنه يجمّل عنك الأحدوثة، ويجزل لك المثوبة»[٣].

إنّ الموقف الإيجابي الفاعل في مواجهة العادات الاجتماعية المتعارضة مع الأحكام الشرعية لهو موقف ضروري ومطلوب قطعًا في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية ومظاهر التعامل بين الناس، فليس يخفى مثلًا على أحد ما للتفاخر الاجتماعي المحموم بالدنيا والتسابق على مظاهرها

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٢٣.
(٢) نفسه ٧: ١٢٥.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، أبو الفتح الآمدي، ص ٣٢٧. و«الأحدوثة» هنا هي حديث الناس عنك.

من آثار سلبية، ليس أقلّها الإسراف والتبذير، ومع هذا فقلّما نجد بين الناس من تواتيه شجاعة الوقوف بوجه هذا المدّ الجارف لهذه العادة الخطيرة.

ومثل هذا ما يمكن قوله أيضًا بشأن عادات أخرى أخذت تستشري وتنتشر بنحو مستمر متوسع في المجتمعات المسلمة، مثل العلاقات غير الشرعية بين الجنسين، لا سيما بعد التطور الكبير لوسائل التواصل الاجتماعي في هذا العصر، مما فتح الباب على مصراعيه لانتشار هذه العلاقات وتوسّعها بنحوٍ يحلو لبعضنا أن يُسبغ عليه صفة البراءة! فصرنا نسمع عن «العلاقات البريئة» بين الزملاء والزميلات في العمل مثلًا! وهي في واقعها علاقات تقود إلى كثير من المساوئ والآثار الاجتماعية السلبية التي أبرزها فساد الأخلاق وشيوع الرذيلة ونشوء المشكلات بين الأزواج وتفكك الأسر.

## ٥ - خلْق الموت والحياة للاختبار

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١).

الآية الكريمة واحدة من آيات قرآنية عدة تحدثت عن الغاية والغرض من الخلقة والإيجاد، ويُلاحظ عليها، بدءًا، أنها لم تقتصر على بيان الغاية من الحياة وحدها، بل أضافت الغاية من الموت أيضًا، وهذا قد يبدو مستغربًا في الوهلة الأولى، إذ يقال: كيف تعلّق الخلق بالموت؟ مع أنّ الموت عَدَمٌ، فهو عدم الحياة، والعدم ليس موجودًا حتى يقال عنه إنه خُلق للغاية الفلانية!

(١) سورة المُلك، الآية: ٢.

لكن هذا الاستغراب سرعان ما يتلاشى حين ينتبه صاحبه إلى أنّ الموت في المفهوم الديني الإلهي ليس عدمًا وفناءً، بل هو انتقال من هذه الدار الفانية إلى دار الخلود والبقاء، ومعلومٌ أنّ الانتقال شيء وجودي، فمن الممكن، إذًا، أن يتعلق به الخلق. عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الموت باب الآخرة»[١]، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله: «الحياة والموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان، لم يدخل في شيء إلا وقد خرجت منه الحياة»[٢].

ويُلاحظ أيضًا أنّ الموت قد تقدم ذكره على الحياة في الآية الشريفة، وفي بعض الأخبار ما يفيد أنّ هذا التقدم لا يراد منه بيان الترتيب في الخلق، فالعطف بالواو يفيد مطلق الجمع ولا يفيد الترتيب، ففي تفسير علي بن إبراهيم القمي لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: «قال: قدّرهما، ومعناه قدّر الحياة ثم الموت»[٣]، وفي روضة الكافي عن

(١) ميزان الحكمة ٩: ٢٢٥.
(٢) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني ٨: ٦٦.
(٣) تفسير القمي ٢: ٣٧٨.

الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنّ الله عز وجل خلق الحياة قبل الموت»[١].

ومع هذا، فقد حاول بعض المفسرين أن يجد وجهًا صالحًا لتسويغ التقدّم في ذكر الموت، فقال: «ثم إنّ ذكر الموت هنا قبل الحياة هو بلحاظ التأثير العميق الذي يتركه الالتفات إلى الموت، وما يترتب على ذلك من سلوك قويم وأعمال مقترنة بالطاعة والالتزام، إضافة إلى أن الموت كان في حقيقته قبل الحياة»[٢].

وأيًا ما كان الأمر، فالآية تصرّح بأنّ الغاية من خلق الموت والحياة هي: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، والبلاء هو الامتحان، فالله سبحانه قد خلق الموت والحياة ليدخلنا جميعًا في امتحان، الغرض منه هو أن يتضح خارجًا مَنْ منا أحسن عملًا؟ ومن الجلي أنْ ليس المراد أنّ الله يريد من الامتحان أن يصل إلى معرفة هذا، فهو سبحانه يعلمه منذ الأزل، وإنما المراد أنّ الحياة الدنيا هي دار تحقّق هذه الطاعة والعمل الأحسن تحقّقا فعليًا، فهي الفرصة لوصول كل منا إلى كماله

(١) الروضة من الكافي، الشيخ الكليني، ٨: ١٤٥، الحديث ١١٦.
(٢) التفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ١٨: ٣٤٩.

الخاص من سلوك طريق العبودية الحقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]. وإلى هذا المعنى أشار الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث طويل جاء فيه:

«وأما قوله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنه عز وجل خلق خلقه ليبلوكم بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة؛ لأنه لم يزل عليمًا بكل شيء»[٢].

ونفي الإمام عليه السلام سبيل الامتحان والتجربة هنا أراد به نفي أن يكون المراد هو أن يتحقق عند الله سبحانه علمٌ بشيء لم يكن يعلمه من قبل، بقرينة التعليل الوارد في ذيل الحديث: «لأنه لم يزل عليمًا بكل شيء».

وتُختتم الآية محل الكلام بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، «فهو العزيز لأنّ الملك والقدرة المطلقين له وحده، فلا يغلبه غالب، وما أقدر أحدًا على مخالفته إلا بلاءً وامتحانًا وسينتقم منهم، وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا، وسيغفر كثيرًا منها في الآخرة كما وعد»[٣]. ويكون

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ٧: ٤٣٤.
(٣) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ١٩: ٣٤٩.

الغرض من ذكر هذين الوصفيين الإلهيين، بناءً على ما ذُكر، هو التخويف (العزيز) والتطميع والترغيب (الغفور) على ما ذهب إليه جمع من المفسرين، منهم صاحب الميزان (قدس سره)، مع أنّ هناك من المفسرين مَن حصر الغرض في الترغيب وحده، على ما يظهر من صاحب التفسير الأمثل مثلًا[١].

ويمكن أن تستفاد من الآية الكريمة مجموعة من الفوائد، أهمها:

**الفائدة الأولى:**

ركّزت الآية المباركة على حقيقة كون الخلقة الإلهية ذات غرض، وليست عبثية، وهي الحقيقة التي لا يفتأ القرآن يؤكدها في آيات متعددة، منها:

- ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٢].
- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[٤].

(١) التفسير الأمثل ١٨: ٣٥٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[١].

- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢].

إنّ هذا التأكيد القرآني المكرر له أثر تربوي واضح في الإنسان، فشتان بين إنسانين: أحدهما لا يعرف له خالقًا، ولا يعي الغرض من وجوده، والآخر مؤمن بربه ويعرف أنه حكيم لا يعبث. فأما الإنسان الأول فتجده حائرًا في أمر مبدئه ومصيره، لا يعرف من أين أتى؟ ولماذا أتى؟ وإلى أين هو سائر؟ ولسان حاله يردد قول الشاعر:

«جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت
وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!»[٣]

هذا الإنسان تتلخص حياته في مجموعة من الأسئلة الوجودية الحائرة المتراكمة عليه، وهي أسئلة لا يجد لها

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٣) من قصيدة «الطلاسم»، لإيليا أبي ماضي، ديوانه ص ١٩١.

إجابات تقنعه، فتتحول الحياة كلها في نظره إلى عبث ولا معقول، وتتمثل في قلق وجودي واغتراب نفسي ليس لهما حدود، ولا لطريقهما نهاية. وهذا هو ما عبّر عنه جان بول سارتر بـ «الغثيان»: «كم أود لو أستسلم، لو أنسى نفسي، لو أنام، ولكني لا أستطيع، إنني أختنق: إنّ الوجود يخترقني من كل مكان، من العينين، من الأنف، من الفم... إنّ الغثيان لم يتركني، ولا أحسب أنه سيتركني بهذه السرعة، ولكني لا أكابده بعد، فهو لم يعد مرضًا ولا نوبة عارضة، إنه أنا»[١].

ومثل هذه الحياة لا قيمة لها إطلاقًا، ولا ينبغي للإنسان أن يكون حريصًا عليها؛ لذا وجدنا بطل رواية «الغريب» يعبّر عن هذا بقوله: «ولكن الناس كلهم يعرفون أنّ الحياة لا تستحق عناء العيش فيها»[٢].

وأما الإنسان الآخر، الذي يؤمن بأنّ له خالقًا حكيمًا لم يخلقه عبثًا بل لغاية مهمة، فهو إنسان مطمئن الوجدان، هادئ البال، يعرف أنه خُلق ليصل إلى كماله الإنساني من طريق عبادة ربه، فينال بعد ذلك النعيم الإلهي الخالد، ويجعله

(١) الغثيان، سارتر، ص ١٧٧.
(٢) الغريب، ألبير كامي، ص ١١٠.

الإيمان يوجّه كل أفعاله وأقواله وكل طاقاته في سبيل تحقيق الهدف الذي خُلق لأجله، وهكذا يكون لإيمانه بالغرض من الخلقة هذا الأثر التربوي المهم والعميق في حياته الفردية والاجتماعية.

**الفائدة الثانية:**

لئن كانت الآية تصرّح بأنّ الغرض من الخلقة هو الامتحان، إنّ هذا ليدعونا إلى أن نستحضر في دواخلنا هذا الإحساس ما دمنا أحياء، الإحساس بأننا في هذه الدنيا في قاعة امتحان، ليس لأجل أن نقلق ونضطرب، بل لأجل أن نحث أنفسنا على أن نؤدي أحسن ما يمكننا أداؤه، وأن نحصل في هذا الامتحان على أعلى الدرجات التي يمكننا الظفر بها؛ كي نحقق الهدف الذي خُلقنا لأجله.

نعم، لا مكان في هذا الامتحان للكسل والتراخي، فلن ينجح فيه إلا الجادّون الباذلون كل ما في حوزتهم من إمكانات وطاقات، وهؤلاء الجادّون أيضًا ستتفاوت نتائجهم بتفاوت عطائهم ومقدار سعيهم. إنّ هذه النظرة كفيلة، ولا ريب، بتربية صاحبها على أن يكون إنسانًا هادفًا في حياته، وسائرًا نحو تلكم الأهداف بطريقة واعية مسؤولة، دونما وقوع في

الغفلة أو استسلام لها، تلك الغفلة التي قد ينجرّ إليها أناس كثيرون حينما يتوغلون في الانغماس في لذائذ هذه الحياة ومشاغلها بنحو يستولي على أفئدتهم ويغطي على نفوسهم، فتغيب عنها الأهداف التي كانت الخلقة لأجلها.

وإذا ما وجد المرء منا نفسه واقعًا في هوّة هذه الغفلة، فإنّ عليه أن يبادر إلى انتشالها واستنقاذها فورًا؛ لذا وجدنا الإمام عليًا عليه السلام يستحث هممنا على ذلك بقوله: «ألا منتبه من رقدته قبل حين منيّته؟»[1]

والانتباه المطلوب هو انتباه القلوب في المقام الأول، فلا يجدينا ولا ينفعنا انتباه حواسنا وجوارحنا إذا كانت الغفلة هي التي تحكم جوانحنا، وفي هذا قال الإمام علي عليه السلام أيضًا: «انتباه العيون لا ينفع مع غفلة القلوب»[2].

**الفائدة الثالثة:**

تستعمل الآية الشريفة صيغة أفعل التفضيل ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فتستحثنا بها على ألّا نكتفي ولا نقنع بالعمل الحسن

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٦٠.
(٢) نفسه ٧: ٢٦١.

وحده، بل لا بد من أن تسمو هممنا وتقوى إراداتنا لنتطلع دائمًا، في مقام العمل الصالح، إلى ما هو أحسن. وهذا لن يتأتى لنا إلا إذا حكّمنا عقولنا واهتدينا بنورها وهديها في التعامل مع ما أمرنا الله به ونهانا عنه، فعن أبي قتادة أنه قال: «سألت النبي ﷺ فيما أمر الله عن قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلًا، ثم قال: أتمكم عقلًا، وأشدكم لله خوفًا، وأحسنكم فيما أمر الله عز وجل ونهى عنه نظرًا، وإن كان أقلّكم تطوعًا»(١).

وإذا كان هذا هكذا، فمن الواضح أنّ المقام عندئذ ليس مقام كمّ وكثرة، وإنما هو مقام كيف ونوعية، فالمهم أن تصدر أعمالنا منا بكيفية تكفل لها القبول عند الله تعالى وتحقيق الآثار المرجوّة نتيجة تحقق الإخلاص والنية الحسنة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه قال: «ليس يعني أكثر عملًا، ولكن أصوبكم عملًا، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل

(١) تفسير نور الثقلين، الحويزي ٧: ٤٣٣.

الخالص: الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وإنّ النية هي العمل، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِۦ﴾[1] يعني على نيته»[2].

إنّ الملاحظ في حالات غير نادرة بين الناس أنّ ثمة حرصًا غريبًا على التفوق والحصول على أعلى المكتسبات وأعظم النتائج حينما يكون الموضوع متعلقًا بالدنيا المادية وزخارفها الزائلة من مال وجاه ومنصب وشهرة وذرية وسلطة... إلخ، فترى الإنسان منّا لا يكلّ ولا يملّ، بل يقضي ليله ونهاره في جدّ ومثابرة وسعي محموم للحصول على ما هو أكثر وأعلى، وكلما نال ما أراد قال لسان حاله: «هل من مزيد؟».

هذا، لكن الحالة تختلف اختلافًا واضحًا حينما يتعلق الموضوع بالإيمان والعمل الصالح والتقرب إلى الله سبحانه للفوز بنعيمه الخالد، فهنا تجد أناسًا كثيرين يقنعون بالقليل،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.
(٢) أصول الكافي، الشيخ الكليني ٢: ١٣، والآية المذكورة أخيرًا هي ٨٤ من الإسراء.

ويرضون بأقل الدرجات الإيمانية وأدنى تجليات العمل الصالح، وكأنّ القضية هنا لا ترقى إلى درجة أهمية المكتسبات المادية الدنيوية، لذا لم تستحق منهم اهتمامًا ولا جهدًا كبيرين!

**الفائدة الرابعة:**

تقدمت الإشارة إلى أنّ من المفسرين من ذهب إلى أنّ الوصفين الإلهيين المذكورين في خاتمة الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ هما لأجل التخويف والترغيب، ومنهم من مال إلى كونهما لأجل الترغيب وحده. وهذان جانبان أعطاهما الإسلام أهمية كبيرة في نصوصه الشرعية وتوصياته، والآية الشريفة مظهر من مظاهر هذا الاهتمام.

يريد الإسلام من الإنسان المسلم أن يربي نفسه على التقوى وطاعة ربه من طريق زرع الخوف من الله تعالى في داخله، ذلك الخوف الذي يكون نابعًا في الأساس من معرفته بذنوبه وإقراره باستحقاقه العقوبة الإلهية عليها، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما

يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفًا، ولا يصلحه إلا الخوف»[١].

وإلى جانب هذا الخوف، يرشد الإسلامُ المسلمَ إلى وسيلة تربوية أخرى للتعامل مع النفس، وهي وسيلة الرجاء، فالمسلم لا بد أن يظل راجيًا رحمة ربه، مؤملًا الفوز بنعيمه وما أعده لعباده المؤمنين، وفي هذا ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «اجعلوا كل رجائكم لله، ولا ترجوا أحدًا سواه، فإنه ما رجا أحد غير الله إلا خاب»[٢]. بيد أنّ هذا الرجاء ينبغي ألّا يكون ادعاءً فارغًا أو أمنيّة لا يصدّقها السلوك الخارجي؛ لذا ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام لمّا قيل له: «إنّ قومًا من مواليك يلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو»، قال: «كذبوا، ليسوا لنا بمَوالٍ، أولئك قوم ترجّحت بهم الأمانيّ، من رجا شيئًا عمل له، ومن خاف من شيء هرب منه»[٣].

ومشكلة هذه النفس البشرية أنّ الخوف إذا طغا فيها وزاد

(١) أصول الكافي ٢: ٤٧.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ٦٤.
(٣) أصول الكافي ٢: ٤٥.

فقد يصل بها إلى درجة القنوط والإياس من رحمة الله تعالى، كما أنّ الرجاء إذا غلب وفشا فقد يدعوها إلى الأمن من مكر الله والتعرّض لما يسخطه؛ لذا دعت النصوص الشرعية المؤمنَ إلى العمل على إحداث نوع من التوازن بين الخوف والرجاء في داخله، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ويكون لكل منهما أثره المرتجى في تربية النفس البشرية بالنحو الناجع المطلوب. من هذه النصوص أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل: ما كان في وصية لقمان؟ فأجاب: «كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أنْ قال لابنه: خف الله عز وجل خيفةً لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، وارجُ الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وُزن هذا لم يزد على هذا، ولو وُزن هذا لم يزد على هذا»[1].

وثمة نصوص شرعية تجعل الإيمان منوطًا باقتران الخوف والرجاء معًا في نفس المرء وظهور أثرهما في سلوكه

(١) نفسه.

الخارجي، فمن ذلك ما عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون خائفًا راجيًا، ولا يكون خائفًا راجيًا حتى يكون عاملًا لما يخاف ويرجو»(١).

**الفائدة الأخيرة:**

ذكرت الآية الكريمة الامتحان الإلهي للإنسان غرضًا لخلقته، وهذا ما ذكره القرآن في آيات أخر أيضًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾(٢)، وكقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾(٣). وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾(٤).

بيد أنّ القرآن ذكر في موضع آخر أنّ الغرض من الخلقة ليس إلا العبادة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾(٥)،

(١) أصول الكافي ٢: ٤٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٤) سورة الإنسان (الدهر)، الآية: ٢.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وذكر كذلك الرحمة غرضًا للخلقة فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾(١).

وبعد الفراغ من كون الغرض هنا غرضًا للمخلوق لا للخالق، أي أنّ الغاية هي غاية للفعل وليست للفاعل؛ لأنّ الله تعالى هو الغني بذاته، وليست فيه أية شائبة نقص حتى يحتاج إلى الاستكمال بغايات هي خارج ذاته المقدسة، بل غايته هي ذاته، أي تجلي أسمائه وصفاته. بعد هذا، قد ينبري أمامنا السؤال عن كيفية التوفيق بين مدلولات الآيات الكريمات، فما الغرض من الخلقة؟ أهو الامتحان أم العبادة أم الرحمة؟ وما معنى هذا التنافي الظاهري بين الآيات في مقام بيانها لغرض الخلقة؟

أجاب العلماء عن ذلك ببيان أنّ هذه الأغراض المذكورة صحيحة كلها، ولا تنافي بينها؛ نظرًا لما بينها من طوليّة وترتّب بعضها على بعض:

«والآن إذا ألقينا نظرة على هذه الأهداف بأجمعها

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩. هذا بناءً على كون الإشارة بـ «لذلك» هي للرحمة المذكورة في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، وثمة لدى المفسرين قول آخر يذهب إلى أنّ الإشارة إنما هي للاختلاف المفهوم من ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

وجدناها مرتبة بشكل طولي، وليست هي في عرض بعضها، فالإنسان إذا أراد نيل تلك الرحمة الخالصة التي أعدّها الله لأوليائه فلا بد له من أن يختار طريق عبادته تعالى، والعبادة الحرة لا بد أن تتم عن طريق الاختيار، ولا بد أن يكون هناك طريقان: طريق الله وطريق الشيطان لكي يمتحن الإنسان، فالاختيار مقدّم على عبادة الله، وعبادته تعالى مقدّمة على الرحمة. إذن يمكن القول: إنّ الإنسان خُلق ليبتلى؛ ليؤدي العبادة الاختيارية؛ ليصل إلى رحمة الله الأبدية الخالدة. فهذه أهداف طولية وليست متعارضة، ولعل هناك من لم يألف أسلوب القرآن فيظن أنّ هذه في عرض بعضها فتكون متناقضة مثلًا، ولكنّ الواقع أنها أهداف طولية، وفي كل مجال يوجد ما يقتضي التأكيد على واحد منها بالخصوص»[1].

(١) معارف القرآن، الشيخ محمد تقي المصباح، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني، ١: ٢٣٩- ٢٤٠.

# ٦ - الشكر والزيادة

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١).

جاءت هذه الآية بين آيتين تتحدث كلتاهما عن كلام نبي الله موسى عليه السلام مع قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾(٢).

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٦ - ٨.

هذا السياق الذي وردت فيه الآية دعا بعضَ المفسرين[١] إلى الاعتقاد بأنها أيضًا من ضمن الكلام المحكي عن موسى عليه السلام، لكن في مقابل هذا ذهب مفسرون آخرون[٢] إلى كون الآية كلامًا إلهيًا مستقلًا وليس من ضمن كلام موسى عليه السلام، اعتمادًا على قرائن معيّنة، وثمة أيضًا من المفسرين من ارتضى الاحتمالين جميعًا[٣]. وليس التحقيق في هذه القضية مما يعنينا فيما نحن بصدده من الاستفادة من محاور دلالات الآية الشريفة.

الفعل «تأذّن» في أول الآية هو بمعنى «أعلَمَ» أو «أذِنَ»، قال العلامة الطبرسي: «التأذّن الإعلام، يقال: أذن وتأذّن، ومثله أوعد توعّد، قال الحرث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

رُبّ ثاوٍ يملّ منه الثواء»[٤]

وأشار بعض المفسرين إلى اشتمال الفعل على معنى

(١) منهم الفخر الرازي في التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ٩: ٢٨٩.
(٢) منهم العلامة الطباطبائي في الميزان ١٢: ٢٢.
(٣) مثل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في الأمثل ٧: ٣٢٧.
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ١٤، ج١٣: ١٩٩.

المبالغة، فدلالته أعمق وأبلغ من مجرد الإعلام أو الإذن، قال الرازي: «ومعنى تأذّن: أذن ربكم، ونظير تأذّن وأذن: توعّد وأوعد وتفضّل وأفضل، ولا بد في تفعّل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانًا بليغًا ينتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبهة»[١].

هذا الإعلام أو الإذن صادر من «ربكم»، ولاختيار هذا الاسم بالذات دون سائر أسماء الله الحسنى دلالة خاصة بلا شك، يتضح جانب منها حين نلحظ أنّ «الرب في الأصل: التربية»، على ما ذكره الراغب الأصفهاني في مفرداته[٢]، أيأنّ الله سبحانه يذكر ما يذكره هنا من منطلق تربية عباده، فالقضية تربوية في الصميم، ولها أعظم الأثر في رفع مستوى هؤلاء العباد في مراقي السمو والكمال الإنسانيين. ولنلاحظ أيضًا إضافة الرب إلى ضمير الجماعة المخاطبين (كم)، فهذا مما يؤكد الدلالة على الارتباط بين الطرفين، وإرادة الطرف الأول مصلحةَ الطرف الآخر وخيره.

يشتمل الإعلام أو الإذن الرباني على مضمون توضّحه

(١) التفسير الكبير ٩: ٢٨٩- ٢٩٠.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «ربب».

جملتان شرطيتان تبتدئ كل منهما بـ «إنْ» الشرطية التي لا تحمل دلالة على أنّ الشرط بعدها سيقع أو لن يقع، فهي محايدة من هذه الناحية، وليست مثل «إذا» التي تؤذن بوقوع الشرط الذي بعدها غالبًا. الجملة الشرطية الأولى تربط بين الشكر والزيادة، فصدور الشكر من العباد يستتبع وجود زيادة من رب العالمين، وهذا وعد إلهي صريح لا يتخلف في أي زمان أو مكان. والجملة الأخرى تربط، في المقابل، بين كفر النعمة - وهو بمعنى الكفران أي عدم الشكر - والعذاب الشديد، فالكفران بالنعمة الإلهية يستدعي التعرض للعذاب الشديد.

ولا ينبغي أن تغيب عنّا هنا ملاحظة التفاوت الأسلوبي الدالّ بين الجملتين الشرطيتين المذكورتين، فبينما جاءت الجملة الأولى صريحة الدلالة على الوعد الإلهي بالزيادة في حالة الشكر ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، جاءت الجملة الأخرى مستعملةً أسلوب التعريض في مقام الوعيد، فهي لم تقل: لأعذبنكم، بل قالت: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. وقد أرجع العلامة الطباطبائي (قدس سره) هذا التفاوت الأسلوبي إلى دأب الكرام وعادتهم، فقال: «ومن لطيف كرمه اللائح من الآية - كما

ذكره بعضهم - اشتمالها على التصريح بالوعد والتعريض في الوعيد . . . وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالبًا»[١]، وهذه التفاتة جميلة فعلًا؛ فأهل الشرف والكرم والفضل يصرّحون تصريحًا واضحًا حين يعِدون الآخرين بمظهر من مظاهر كرمهم، لكنهم لا يتوعدونهم إلا بطريقة موارية غير صريحة؛ إذ الوعيد ليس هو الأصل في طبعهم الإنساني الشريف.

وقد يمكن إرجاع لجوء الآية إلى التعريض في مقام الوعيد إلى كون عذاب هذا الإنسان الكافر بنعمة ربه غير حتمي؛ نظرًا لوجود احتمال أن يتوب إلى ربه قبل موته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو نظرًا لاحتمال أن تتداركه شفاعة الشافعين بعد موته إن لم يوفّق للتوبة قبله.

وثمة في الآية الكريمة أبعاد دلالية مهمة، نتوقف عندها فيما يأتي:

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٢٢.

**البُعد الأول:**

تحمل الجملتان الشرطيتان الموجودتان في الآية دعوة غير مباشرة إلى أن ينبذ الإنسان النظرة السلبية إلى موقعه في قضية النعمة والرزق، فلا يحسبنّ القضية قضية غيبية صرفة، تتحكم فيها مقاييس وأسس ليست له بها علاقة من قريب أو بعيد، فكأنه قشة في مهب الريح، لا حول له ولا إرادة فيما يهيّأ ويجهّز له. الآية تفيد أنّ الاختيار بيد الإنسان، فإما أن يشكر نعمة ربه فتزداد عنده، وإما أن يكفر بها فيعرّض نفسه للعذاب الشديد، وفي الحالتين يكون موقفه هو الأساس والأصل في النتيجة التي سيصل إليها.

إنّ النظرة السلبية في هذا المجال لدى الإنسان ستقوده إلى مجموعة معقدة من السلبيات في مجالات متعددة:

أ - فعلاقته مع الله تعالى سيصيبها التوتر والتراجع، وسيشوبها الظن السيء، وربما التشكيك في العدالة الحكمة الإلهيتين. كل ذلك من منطلق السؤال الثقيل الذي سيظل يلحّ على ذهنه ووجدانه من دون أن يجد له جوابًا: لماذا أنعم الله على غيري ولم ينعم عليّ بمثل تلك النعمة؟ لماذا منحه ومنعني؟ وواضح أنّ سؤالًا كهذا لا يصدر إلا من إنسان لا

يعي وجود أثر فاعل مهم له ولمواقفه في قضية وجود الرزق أو عدمه.

ب - وعلاقته مع ذاته ستغدو علاقة مَن لا يجد في داخله أي دافع يحرّكه ويدفعه نحو الإبداع والإنتاج والعطاء في الحياة؛ فما دامت الأرزاق تأتي وتذهب من دون أن يكون له هو أي تأثير فعلي في وجودها وغيابها، فلماذا إذًا يُجهد نفسه ويُتعبها ويجعلها تكدّ وتضنى؟ أليس الأجدى أن يهدأ ويستكين ويرتاح، إذا كان رزقه سيأتيه في كل حال بالمقدار المقدّر له؟

ومن المؤسف حقًا أن يكون هذا هو المعنى الذي يفهمه بعض الناس من بعض الروايات الشريفة التي تتحدث، في ظاهرها، عن أنّ رزق الإنسان سيأتيه لا محالة وإنْ لم يطلبه بجهده وسعيه، كما عن رسول الله ﷺ: «الرزق أشد طلبًا للعبد من أجَله»[1]، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الرزق يطلب من لا يطلبه»[2].

والحقّ أنّ هذه الروايات الشريفة تريد - كما يستفاد من روايات أخرى - أن تنبّه الإنسان على أنّ الرازق الحقيقي هو

(١) ميزان الحكمة ٤: ١١١.
(٢) نفسه.

الله تعالى، فهو الذي جعل للأسباب الطبيعية قدرتَها على التسبب في مسبّباتها، ولولاه لما أفادت شيئًا، فعلى الإنسان ألّا يكون معلّق القلب بهذه الأسباب الطبيعية. نعم، عليه أن يأتي بها ويسعى من طريقها، لكن عليه أن يبقي قلبه مرتبطًا بربه ومؤملًا رزقه منه، فمن شاء أن يرزقه فسيأتيه رزقه في كل حال من الأحوال، مهما غفل عن الأسباب أو تعاضدت هي ضده.

مقدّر الأرزاق، إذًا، هو الله تعالى، ولن يتعدى أيُّنا ما قُدّر له، مهما كان جهده أو كسله في مقام العمل، فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «اعلموا أنّ عبدًا وإن ضعفت حيلته ووهنت مكيدته، أنه لن ينقص ما قدّر الله له، وإن قوي عبد في شدة الحيلة وقوة المكيدة أنه لن يزداد على ما قدّر الله له»[1]. لكنّ هذا المعنى ليس متنافيًا مع ضرورة طلب الرزق والسعي في تحصيله، ويجمع الجانبين معًا قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «اطلبوا الرزق، فإنه مضمون لطالبه»[2]، ويدل عليهما أيضًا قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع طلب

(١) نفسه ٤: ١٠٧.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ١٠٦.

الرزق من حلّه؛ فإنه عون لك على دينك، واعقل راحلتك وتوكّل»[١].

ومن جهة أخرى، تريد الروايات الشريفة أن تربّي المسلم على عدم الحرص على رزقه من الدنيا؛ لذا تنبّهه على أنّ الرزق مقدّر ومقسوم في علم الله تعالى، فليس ثمة داعٍ إذًا للحرص عليه؛ ذلك أنّ هذا الحرص هو مظهر أكيد من مظاهر حب الدنيا والتعلق القلبي بها وبزخارفها، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص، ولا يصرفه كراهية كاره»[٢]. وتروى عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الأبيات الآتية[٣]:

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
فإنّ الرزق مقسوم وكدّ المرء لا ينفع
فقير كل من يطمع غنيّ كل من يقنع

وعن الصادق عليه السلام قوله: «إنْ كان الرزق مقسومًا فالحرص لماذا؟»[٤]

(١) نفسه.
(٢) نفسه ٤: ١٠٧.
(٣) نفسه ٤: ١٠٨.
(٤) نفسه.

ج - وعلاقة هذا الإنسان ذي النظرة السلبية مع الناس الآخرين من حوله لن تكون أيضًا علاقة سويّة سليمة؛ ذلك أنه سيحسد - لا محالة - الناس على ما آتاهم الله من فضله، وسيدعوه حسده هذا إلى أن يتعامل معهم تعاملًا غير التعامل الإيماني المطلوب بين المؤمنين، كيف لا؟ وقد ورد في الروايات الشريفة أنّ الحسد يأكل الإيمان، ومع ذهاب الإيمان (ولو بصورة غير كاملة) تذهب الأخوّة الإيمانية بين المؤمن وأخيه المؤمن، ولا تبقى إلا الأحقاد والضغائن وأمراض النفوس، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[١].

من هنا لا ينبغي لأحد أن يستعظم أن يكون النهي عن الحسد وصيةً إلهية للأنبياء، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يا بن عمران، لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدّنّ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإنّ الحاسد ساخط لنعمي، صادّ لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يكُ كذلك فلست منه وليس مني»[٢].

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٤٤.
(٢) نفسه ٧٠: ٢٤٩.

**البُعد الثاني:**

هذا البُعد هو، في واقعه، البُعد المقابل للبُعد السابق، أو الصورة المضيئة المقابلة له. فإذا كان البُعد السابق يتحدث عن ضرورة نبذ الإنسان النظرةَ السلبية إلى موقعه من الرزق، فإنّ هذا يستلزم أن نتحدث هنا عن النظرة الإيجابية المطلوبة قرآنيًا. هذه النظرة تقول إنّ للإنسان تأثيرًا مهمًا في رزقه ووفور النعمة لديه، وذلك من طريق الشكر الذي يستتبع زيادة النعمة واستمرارها.

وقد ذكر العلماء للشكر تعريفات عدة، منها ما ذكره العلامة الطباطبائي (قدس سره) إذ عرّفه بأنه: «إظهار النعمة اعتقادًا، وقولًا، وفعلًا»[1]. ويكشف هذا التعريف عن أنّ الشكر ليس مجرد عملية ترديد ألفاظ معينة باللسان، وإلّا لما كانت للشكر كل هذه المنزلة الخاصة في الإسلام، ولما وصف القرآن الشاكرين الحقيقيين بالقلة: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2]. الشكر الحقيقي يشتمل - إضافةً إلى التعبير

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٣٨.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

اللساني - على جانب اعتقادي، وهذا الجانب هو منطلقه الذي ينطلق منه والأساس الذي يقوم عليه. والمقصود من هذا الاعتقاد - على ما يستفاد من الروايات -أن يعرف الإنسان النعمة مهما صغرت، فلا يتجاهلها ولا يتناساها، بل يقرّ بأنها نعمة موجودة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها»(١).

ومشكلة بعض الناس، في هذا المجال، أنهم لا يعرفون من النعم إلا ما كان مرتبطًا بالحياة المادية والمتع الدنيوية كالأموال والمناصب والأولاد والسلطة والوجاهة وما اتصل بذلك، أما النعم المعنوية والروحية والنفسية والأخروية - كنعمة الإيمان والهداية والعلم والتوفيق الإلهي والعمل الصالح - فهم في غفلة عنها، وقلّما ينتبهون لوجودها أو يتجهون لشكر ربهم عليها. وعن هؤلاء تحديدًا ورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من لم يعلم فضل الله عز وجل عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قصر علمه، ودنا عذابه»(٢).

ومعرفة النعمة لا تنفكّ عن معرفة المنعم بها، فالشاكر

(١) تفسير نور الثقلين ٣: ٤٧٠.
(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٤٩.

الحقيقي هو الذي يحمل في داخله اعتقادًا راسخًا بأنّ المنعم الحقيقي إنما هو الله وحده، وما سائر المنعمين عليه إلا أسباب هيّأها الله سبحانه له وسخّرها لأجله. ولولا توفيق الله وإذنه ولطفه لما كان لها أي تأثير. وحتى عندما نشكر الله تعالى على نعمه فإنّ ذلك إنما يتيسّر لنا ونتمكن منه بسبب توفيقه ووافر فضله. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حق شكري، فقال: يا رب فكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك مني»[١].

وفي الرواية أنّ رجلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام: «أرأيت هذه النعمة الظاهرة علينا من الله، أليس إن شكرناه عليها وحمدناه زادنا؟ كما قال الله في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، فقال عليه السلام: نعم، من حمد الله على نعمه وشكره وعلم أنّ ذلك منه، لا من غيره»[٢].

وثمة في الشكر الحقيقي، أخيرًا، جانب عملي، وهو

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٣٦.
(٢) نفسه ٦٨: ٥٣.

المحك الحقيقي والمختبر الدقيق لمدى صدق الشكر وواقعيته. هذا الجانب العملي يتمثل في استعمال نعم الله تعالى في طريق طاعته سبحانه وعدم استعمالها في معاصيه؛ لذا ورد أنّ أبا بصير لمّا سأل الإمامَ الصادق عليه السلام: «هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكرًا؟» أجابه الإمام عليه السلام بقوله: «يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال»، ثم أضاف، وهذا محل شاهدنا هنا: «وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌ أدّاه»[١]. ومن الواضح أنّ أداء الحقوق المالية ليس إلا مثالًا واضحًا لما يجب على الشاكر الحقيقي التزامه من سلوك طريق العبودية وامتثال الأوامر الإلهية واستعمال نعمه سبحانه فيما يرضيه.

وفي المقابل، يكون المرء جاحدًا نعمةَ الله عليه وغير مؤدٍّ حق شكرها إذا استعملها في طريق المعصية، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «شكر كل نعمة الورع عمّا حرّم الله»[٢]، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «شكر النعمة اجتناب المحارم»[٣].

(١) تفسير نور الثقلين ٣: ٤٦٩.
(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٤٢.
(٣) تفسير نور الثقلين ٣: ٤٧٠.

**البُعد الثالث:**

علينا أن نعي جيدًا أنّ للناحية المعنوية المتمثلة في الارتباط بالله تعالى وأداء شكره أثرًا كبيرًا في تحصيل الرزق وزيادته لا يقلّ عن أثر الناحية المادية والأسباب المتعلقة بها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ ذلك أنّ الشاكر ينادي بلسان حاله بكونه مستحقًا للنعمة الإلهية وأهلًا لها، فلن يكون من الله الكريم إلا أن يعطيه المزيد ويفيض عليه من جوده. وقد ضرب صاحب التفسير الأمثل لذلك مثلًا بديعًا، حين شبّه الحالة هنا بحالة الأشجار التي بنموّها وإثمارها تجعل مُزارعها يقتنع بأنها تستحق منه مزيدًا من الاهتمام والرعاية، في حين أنّ الأشجار الأخرى التي ذبلت ويبست ولم تثمر سيكون حالها مانعًا المزارعَ من إعطائها أي مزيد من الرعاية والخير. هذا، مع فارق واضح بين المثل وما ضُرب له، فالأشجار ليس لديها اختيار، وإنما هي خاضعة للقوانين الطبيعية التكوينية، بينما الإنسان كائن مختار، وهو بإرادته يشكر ربه أو لا يشكره[1].

الشكر الحقيقي، إذًا، عامل مهم جدًا في الرزق. وهذه

(١) يراجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٧: ٣٣١.

الحقيقة أكّدتها الروايات الشريفة الكثيرة، فمنها ما عن رسول الله ﷺ كقوله: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة»[١]، ومنها ما عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كقوله: «من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة»[٢]، وقوله: «شكر النعم يزيد في الرزق»[٣].

**البُعد الأخير:**

إذا كانت الأمور تُعرف بأضدادها، فإنّ ما تقدم من بيان أهمية الشكر في قضية وجود الرزق كافٍ لمعرفة ما للكفران من أثر سيء وخطير في القضية نفسها، فهو ليس عاملًا جانبيًا تافهًا لكي يستصغره المرء أو يتجاهله، بل له أكبر الأثر في تضييع النعم أو «تنفيرها» بحسب تعبير الرواية عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر»[٤]، ولنلحظْ أنّ الرواية لا تتحدث عن الكفران التام، بل تتحدث عن قلة الشكر، وهي درجة

(١) ميزان الحكمة ٥: ١٤٤
(٢) نفسه.
(٣) تفسير نور الثقلين ٣: ٤٧٠.
(٤) تفسير نور الثقلين ٣: ٤٧١.

أضعف خطورةً من الكفران الكامل. لكن، ومع هذا، نجد لها أثرًا في تنفير أقصى النعم!

وبالكفران أيضًا تفقد النعمة خيرها وبركتها، ولربما تتحول إلى وبال وبلاء على صاحبها، مثلما ذكر الإمام علي عليه السلام أيضًا: «كم من مبتلى بالنعماء»[1].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ١١٣.

## ٧ - الفتنة بالناس

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

ورد في سبب نزول هذه الآية والآيات التي في سياقها عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك منّ الله عليهم من بيننا؟ أو نحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك، فأنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(٢).

---

(١) سورة الأنعام: ٥٣.

(٢) الدر المنثور، السيوطي ٣: ٢٤.

الآية تعرض، إذًا، لقضية الفتنة (أي الامتحان والاختبار) التي تكون بين الناس أنفسهم، أي أن يُمتحن بعضهم ببعض. وقد ذهب كثير من المفسرين[١] إلى أنّ الامتحان المقصود في الآية هو لخصوص الأثرياء والأقوياء من الناس، فهم يمتحنون في علاقتهم بفقراء المجتمع وضعفائه: أيتواضعون لهم ويشعرون بالمساواة معهم ويساعدونهم أم يتكبرون عليهم ويطغون ويتعالون؟ وثمة من المفسرين[٢] من ذهب إلى أنّ الامتحان ليس مختصًا بأحد الطرفين، بل هو يعمّهما جميعًا، فالأثرياء مبتلون بما تقدم ذكره، والفقراء ممتحنون في أنهم أيصبرون على فقرهم وقلة ما بأيديهم أم تستولي الدنيا على قلوبهم وينتابهم الحسد للأثرياء فيشعرون بالضعة والهوان أمامهم؟ لكن هذا التعميم - وإن كان مقبولًا ووجيهًا في حد نفسه - لا يتناسب مع ما ورد في الآية بعد ذلك: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، فمن الواضح أنّ هذا القول المحكي إنما هو قول الأثرياء والأقوياء وحدهم دون الفقراء.

(١) منهم الطباطبائي في الميزان ٧: ١٠٤، والشيرازي في الأمثل ٤: ٢١٠، وقراءتي في تفسير نور (باللغة الفارسية) ٣: ٢٦٧.

(٢) منهم الرازي في التفسير الكبير ٦: ٣٢٧، والسبزواري في مواهب الرحمن ١٣: ٣٤٩.

وقد اختلف المفسرون في نوع اللام في ﴿لِيَقُولُوٓاْ﴾[١]، والأقرب أنها لام العاقبة[٢]، فهي كاللام الواردة في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٣]، إذ من الواضح أنّ آل فرعون لم يلتقطوا موسى عليه السلام وهو رضيع لأجل أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، وإنما التقطوه ليكون قرة عين لهم، لكن كانت عاقبة هذا الالتقاط ونتيجته أنْ صار موسى عليه السلام لهم عدوًا وحزنًا. فهذا هو المعنى المقصود أيضًا في الآية محل الكلام، إذ أنّ عاقبة الامتحان الإلهي للناس بعضهم ببعض هي أنّ الأثرياء المترفين يقولون كيت وكيت.

إنهم هنا يعرضون كلامهم في معرض الاستفهام، وهو ليس استفهامًا حقيقيًا بالتأكيد، بل هو «للتهكم والاستهزاء، ومعلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره ويستهينون موقعه من المجتمع، ولم يكن ذلك إلا لفقرهم ومسكنتهم

(١) يراجع البحث المفصل الذي عقده الآلوسي في روح المعاني لهذا ٧: ٢١١-٢١٢.

(٢) هذا ما ذهب إليه صاحب مواهب الرحمن١٣: ٣٤٩، ونسبه صاحب روح المعاني إلى «غير واحد» ٧: ٢١١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨.

وانحطاط قدرهم عند الأقوياء والكبرياء منهم»[١].

يستفهمون ساخرين: أهؤلاء الفقراء الضعفاء هم الذين منّ (من المنّة وهي النعمة) الله عليهم من دوننا ونحن الرؤساء والأشراف وهم ليسوا سوى فقراء بسطاء؟ فجاءت الآية في نهايتها باستفهام غير حقيقي أيضًا، هو «للتقرير بعلمه البالغ بذلك»[٢]، فقالت: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. هؤلاء الضعفاء الفقراء علم الله تعالى فيهم صفة جعلتهم يستحقون أن ينالوا نعمته ويقربوا من نبيه ﷺ، وهي صفة الشكر التي لا يُلقّاها من الناس إلا ذو حظ عظيم، وقليلٌ ما هم.

ويجمل بنا، بعد هذا، أن نتوقف من الآية الشريفة عند مواضع:

## الموضع الأول:

تحدثت الآية عن فتنة الناس بالناس، هي «سنة إلهية جارية في الناس منذ ابتداء الخليقة، نابعة من حكمة متعالية، فإنّ الله عز وجل خلق البشر متفاوتين من جهات شتى، يقع

(١) الميزان في تفسير القرآن ٧: ١٠٤
(٢) روح المعاني ٧: ٢١٢.

بعضهم فتنة لبعض، فتظهر حقيقة صفاتهم، وما تحمله سرائرهم من حسن أو سوء، ولينتظم النظام العام، وفوق كل ذلك تتبيّن حقيقة الربوبية العظمى وقدرته المتعالية وحكمته التامة»[١].

هذه الفتنة ذكر لها الفخر الرازي وجوهًا:

١ - الغنى والفقر بوصفهما سببين لحصول هذا الافتتان.

٢ - ابتلاء الشريف بالوضيع.

٣ - ابتلاء الذكي بالأبله.

ثم قال: «وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة، ولا تجتمع في إنسان واحد ألبتة، بل هي موزعة على الخلق. وصفات الكمال محبوبة لذاتها، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله من صفات الكمال»[٢].

ويتضح من نهاية كلامه أنه لم يرد حصر وجوه الفتنة في الوجوه الثلاثة التي ذكرها أولًا، وإنما ذكرها على وجه التمثيل فقط. وهذا هو الحق، فهذه الفتنة يمكن أن تتبدى وتتمظهر في

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١٣: ٣٤٨.
(٢) التفسير الكبير ٦: ٣٢٨- ٣٢٩.

وجوه وصور لا حصر لها ولا يمكن أن يدركها العدّ، فالناس متفاوتو الأخلاق والصفات، ولا يمكن أن يظهروا أمامك في صورهم الحقيقية إلا إذا عاشرتهم، وتمكنت بالمعاشرة من نزع أقنعتهم عن وجوههم، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «خوافي الأخلاق تكشفها المعاشرة»[١].

ولربما يُبتلى أحدنا في حياته الاجتماعية بإنسان - قد يكون زوجًا أو زوجة أو ولدًا أو جارًا أو زميلًا أو صديقًا أو غير ذلك - سيء الخلق والعشرة، ويحتاج التعامل معه إلى قدر غير قليل من الصبر وسعة الصدر وجمال الخلق. وفي مثل هذه الحال لا بد للمؤمن من استحضار وصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التي جاء فيها: «جاملوا الناس بأخلاقكم تسلموا من غوائلهم، وزايلوهم بأعمالكم لئلا تكونوا منهم»[٢]، وكذلك وصية الإمام علي عليه السلام لشيعته: «كونوا في الناس كالنحلة في الطير، ليس شيء من الطير إلا وهو يستخفّها، ولو يعلمون ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣٢١.
(٢) نفسه ٦: ٣١٧.

ذلك بها. خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم»[١].

هاتان الوصيتان الشريفتان تشيران إلى ضرورة التمسك بكلا طرفي معادلة مهمة في المعاشرة: فالطرف الأول يستدعي التعامل بالحسنى والمعروف وتجنب الاصطدام والخصام، واللجوء بدلًا من ذلك إلى المجاملة بالأخلاق الحسنة والمخالطة بالألسن والأجساد، لكن هذا الطرف ينبغي ألّا يجعل المرءَ منّا يتساهل ويداهن فيما يرتبط بدينه وخلقه، فلا بد من التمسك بالطرف الآخر للمعادلة أيضًا، وهو المزايلة بالقلوب والأعمال، فعلى المؤمن أن يحافظ على كرهه القلبي للمنكرات والرذائل التي يراها عند غيره، وعليه أيضًا أن يبقي سلوكه بعيدًا عن الأعمال القبيحة التي لربما تصدر من الآخرين من حوله.

وإنّ من أقبح وجوه الفتنة بالناس أن يُفتتن الإنسان بطاعة مَن كان في واقعه شيطانًا في صورة إنسان، فيغريه بالمعاصي، ويكرّه له الطاعات ويبعده عن سبلها. وعن مثل هذا قال رسول الله ﷺ: «من أرضى سلطانًا بما يسخط الله خرج من

(١) نفسه.

دين الله عز وجل»[١]، وقال الإمام علي عليه السلام: «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق»[٢].

## الموضع الثاني:

تبيّن الآية الكريمة صورة جليّة من صور تحكيم المقاييس الدنيوية المادية في مجال التفاضل بين البشر، فهؤلاء الكفار المترفون والأثرياء من قريش كانوا يحسبون (أو هكذا يُظهرون) أنّ وجاهتهم الاجتماعية الدنيوية وعلوّ كعبهم وشرف شأنهم في قومهم، كل ذلك ينبغي أن يحفظ لهم موقع الصدارة عند ربهم، وكأنّ التفاضل عند الله تعالى قائم على المقاييس الأرضية المادية ذاتها التي يتحاكمون إليها في حيواتهم.

لقد اهتمت النصوص الإسلامية اهتمامًا بالغًا ببيان الأسس الحقيقية التي يقوم عليها التفاضل بين الناس في المنظور الإلهي، فوجدنا القرآن الكريم يقول:

- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

---

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٧١.
(٢) نفسه.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

- ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

وهذا البيان الدقيق الواضح يستدعي دعوةَ المسلمين إلى رفض تحكيم المقاييس الجاهلية المبنية على التفاضل في ضوء الأموال والوجاهات والمراكز الاجتماعية. والروايات الشريفة تريد، من جهة، أن يتخلى المسلم عن تقويم ذاته بناءً على ما يملك وما لديه من ألقاب ومناصب، روي في هذا المجال أنه «جاء رجل موسر إلى رسول الله ﷺ نقيّ الثوب، فجلس إلى رسول الله ﷺ، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله ﷺ: أخفتَ أن يمسّك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفتَ أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفتَ أن يوسّخ ثيابك؟ قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعتَ؟ فقال: يا رسول الله، إنّ لي قرينًا يزيّن لي كل قبيح، ويقبّح لي كل حسن، وقد جعلتُ له نصف مالي. فقال

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٥.

رسول الله ﷺ للمعسر: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: لِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك»[١].

وتريد الروايات، من جهة أخرى، أن يتخلى المسلم عن تقويم غيره من الناس بناءً على المقاييس الدنيوية المادية، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من استذلّ مؤمنًا أو مؤمنة أو حقّره لفقره أو قلة ذات يده، شهره الله يوم القيامة ثم يفضحه»[٢].

وعن أبي ذر الغفاري أنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: انظر أرفع رجل في المسجد، فنظرت، فإذا رجل عليه حلّة، قلت: هذا، قال: قال لي: انظر أوضع رجل في المسجد، فنظرت، فإذا رجل عليه أخلاق، قال: قلت: هذا. فقال رسول الله ﷺ: لَهذا عند الله خير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا»[٣].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من لقي فقيرًا مسلمًا فسلّم عليه خلاف سلامه على الغني، لقي الله عز وجلّ يوم القيامة وهو عليه غضبان»[٤].

---

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٨٩.
(٢) نفسه ٧: ٥١٥.
(٣) ميزان الحكمة ٧: ٢٩٧.
(٤) نفسه ٧: ٥١٥.

وكان من دعاء الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: «واعصمني من أن أظن بذي عدم خساسةً، أو أظن بصاحب ثروة فضلًا، فإنّ الشريف من شرّفته طاعتك، والعزيز من أعزّته عبادتك»[١].

## الموضع الثالث:

استفاد بعض المفسرين من الآية دلالتها على أنّ «الله تعالى يعمل وفق ما تقتضيه حكمته، لا وفق ما يتوقع الناس وينتظرون»[٢]. وهذه استفادة دقيقة ومهمة في الوقت نفسه، فهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية كانوا يؤملون وينتظرون أن يحكّم الله المقاييس التي ألفوها ودرجوا عليها في تعاملاتهم الاجتماعية المعهودة، لكنه سبحانه ما استجاب لرغباتهم وميولهم، بل أعمل حكمته وما تقتضيه.

إنّ هذا لموضع جدير منّا بالاهتمام والاستفادة، فالإسلام يريد منّا أن نسعى دائمًا إلى تحكيم الحق في حياتنا وتطبيق ما تتطلبه الحكمة، من دون أن نعتني بآراء الأغلبية من الناس وما تريده منّا، فالكثرة لا تعني الحق بالضرورة، والأغلبية لا

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٣٥ (دعاؤه في الرضا بالقضاء)، ص ١٤٢.
(٢) تفسير نور (باللغة الفارسية)، الشيخ محسن قراءتي، ٣: ٢٦٧.

تستلزم الحكمة بالقطع؛ لذا وجدنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يعظنا بقوله: «أيها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»(١).

وروي عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام أنه قال لفضل بن يونس: «أبلغ خيرًا، وقل خيرًا، ولا تكن إمّعة. قلت: وما الإمّعة؟ قال: لا تقل أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أيها الناس، إنما هما نجدان: نجد خير ونجد شر، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»(٢).

أين هذا الكلام العظيم من حياة بعضنا ممّن يظنون أنّ لهم في الاستجابة لرغبات الآخرين وآرائهم مندوحة لهم من اتّباع الحق والحكمة والحكم الشرعي؟ فتراهم يحاولون دومًا أن يسّوغوا تركهم لامتثال بعض تكاليفهم الشرعية وعدم اهتمامهم ببعض الضوابط الشرعية في أفعالهم وأقوالهم بكون الناس هكذا يريدونهم أن يكونوا، وبأنّ الغالبية هذا هو سلوكهم!

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١، ص ٣١٩.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٢٥٦.

**الموضع الأخير:**

تكرر في غير موضع من القرآن الكريم ربط النعمة الإلهية بالشكر، وكونه سببًا لبقائها وزيادتها، فمن ذلك:

- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١].

- ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٢].

- ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾[٣].

والآية محل الكلام هي من هذه المواضع أيضا؛ فهي صريحة في أنّ الله تعالى جزى المؤمنين الجزاء الصالح لكونهم شاكرين، وهو سبحانه أعلم بالشاكرين من عباده.

من أراد بقاء النعم الإلهية، إذًا، فعليه بالشكر، ومن أحب ازديادها فعليه بالشكر أيضًا. لكن عليه أن يتذكر أنّ «الشكر إما قوليّ أو فعليّ»[٤]، ولئن كان تحريك اللسان بعبارات الشكر والحمد فعلًا ميسورًا للجميع لا يحتاج لكثير

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة القمر، الآية: ٣٥.
(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السبزواري، ١٣: ٣٥٠.

من عناء وكبير جهد، فإنّ الشكر الفعلي ليس كذلك؛ لذا كان هذا الشكر مناطًا للتمييز بين المؤمن والمنافق في قولة الإمام علي عليه السلام: «شكر المؤمن يظهر في عمله، وشكر المنافق لا يتجاوز لسانه»(١).

إنّ الشكر الفعلي معناه أن يكون الإنسان منّا شاكرًا ربه بفعله وسلوكه، فيستعمل النعمة الإلهية فيما يقرّبه من ربه، ويدنيه إلى رضوانه، ولا يستعملها في معاصيه ومكارهه، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «شكر كل نعمة الورع عمّا حرّم ا»(٢).

ولمّا كان للشكر هذا المعنى الدقيق العميق، لم يكن مستغربًا تكرار تنبيه القرآن الكريم على أنّ أغلب الناس غير شاكرين، كما في:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٣).

- ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(٤).

(١) ميزان الحكمة ٥: ١٤٦.
(٢) نفسه.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١].
- ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢].

وهو التنبيه الذي يدل، أيضًا، على الموقع المميز الذي يتسنمه الشكر عند الله تعالى، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لو كان عند الله عبادة تعبّد بها عباده المخلصين أفضل من الشكر على كل حال لأطلق لفظه فيهم من جميعالخلق بها، فلمّا لم يكن أفضل منها خصّها من بين العبادات وخصّ أربابها فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٣].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٣) ميزان الحكمة ٥: ١٤٢- ١٤٣.

# ٨ - الرغبة في الفجور

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾[١].

ورد في سبب نزول الآيات أنّ مشركًا يدعى «عدي بن أبي ربيعة» كان جارًا للنبي ﷺ، فسأل النبيَّ عن أمر القيامة فأخبره به، فقال عدي: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدّقك، أوَ يجمع الله هذه العظام؟ فنزلت هذه الآيات وأجابته؛ لذا قال فيه النبي ﷺ: «اللهم اكفني شر جاري سوء»[٢].

تبتدئ الآية الأولى باستفهام توبيخي غير حقيقي، فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يظن (والحسبان المذكور هو الظن) أنّ

(١) سورة القيامة، الآيات: ٣ - ٥.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٩: ١٤٦.

الله سبحانه لن يجمع عظامه بعد أن تتفتت وتغدو رميمًا؟ هل وصل به الجهل وقصر النظر إلى هذه الدرجة التي يعجز فيها عن رؤية معالم القدرة الإلهية وآثارها الواضحة لكل ذي عينين؟

وتجيب الآية الثانية بحرف الجواب «بلى»، متبوعًا بالحال «قادرين»، عامل هذه الحال فعل محذوف يُفهم مما سبق، على ما ذكره المفسرون، وتقدير الكلام: بلى نجمعها قادرين على أن نسوّي بنانه. القدرة الإلهية هي أعظم مما يمكنهم تخيّله، فليست تقف عند إمكانية جمع العظام التي أحالوها وكذّبوا بها، بل تتعداها إلى تسوية البنان، والبنان أطراف الأصابع، وقيل هي الأصابع، ولا ريب أنّ إعادتها إلى حالتها السويّة المعتدلة الدقيقة الخلق تتطلب قدرة أكبر من مجرد جمع العظام الذي وقع موقع تكذيب المشركين أو بعضهم.

وتوقفنا الآية الأخيرة على حقيقة مهمة وصادمة في الوقت نفسه، تتعلق بمنشأ إنكار هؤلاء المشركين للمعاد، فهذا المنشأ هو رغبة الإنسان في الفجور، والفجور هو في الأصل الشق شقًا واسعًا، وقد سمي الخروج عن مبادئ الدين فجورًا

لأنه «شق ستر الديانة» كما ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته[١]. نعم، إنّ الإنسان ليرغب في أن يتحرر من الدين وقيوده وضوابطه مدى عمره وما دام حيًا (وهذا معنى «الأمام» المذكور)، ورغبته هذه هي التي تحركه نحو إنكار المعاد، فمع إنكاره ينفتح الباب واسعًا لاتّباع الشهوات والسير في طريق المنكرات والفجور؛ «إذ لا موجب للإيمان والتقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب والجزاء»[٢].

هذا، وفي الآيات دروس مهمة:

**الدرس الأول:**

لا يصح للإنسان العاقل أن يبني عقائده على الحسبان - وهو الظن - مثلما هو مورد توبيخ هذه الآيات الكريمة، فالعقيدة هي من أهم القضايا وأخطرها في حياة كل إنسان منا، وعليها يتوقف حاضره ومستقبله. وإنّ قضية بهذه الدرجة من الأهمية ليقبح بالعاقل أن يتركها نهبًا لظنونه وترجيحاته غير القائمة على أساس من يقين حقيقي، بل عليه أن يكون عليها

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «فجر».
(٢) الميزان ٢٠: ١٠٥.

حريصًا كل الحرص، فلا يبنيها إلا على الحقائق اليقينية، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»[١]، وروي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «اليقين عماد الإيمان»[٢].

وحقًا يأسف المرء حين يجد أناسًا في هذا الزمان، زمان التطور الهائل في وسائل الحصول على المعرفة وزمان سهولة الوصول إلى المعلومات، يتساهلون في هذا المجال تساهلًا عجيبًا، فلا يرهقون أنفسهم بعض الإرهاق في التأكد من صحة المعلومات الواصلة إليهم، ولا يجشمون أنفسهم أي عناء في محاولة الحصول على المعلومات الصحيحة من مصادرها الموثوقة، بل يكتفون بالرجوع إلى ما هو متاح في وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية، وما تبثه القنوات الفضائية، من دون أن يعرفوا الحق من الباطل أو يميزوا حابلًا من نابل. ومنهم من لا يمنعه مانع من الاعتماد في تكوين عقيدته وتشكيلها على بعض المنامات والخرافات والأوهام مما لا يورث يقينًا، لا بل ولا ظنًا. والواقع أنّ تصرفًا كهذا

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٧٧٤.
(٢) نفسه.

ليكشف عن قلة عناية بالدين وعدم اهتمام بالعقيدة، وإلا لما تساهل المرء كل هذا التساهل، ولما بخس القضية حقها من التدقيق والبحث عن الحق.

**الدرس الثاني:**

يحثنا القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، ومنها هذه الآيات محل كلامنا، على أن نستحضر القدرة الإلهية في أذهاننا وقلوبنا، نظرًا لما لها من أثر تربوي عميق في شخصياتنا؛ ذلك أنّ من أسباب عدم خوف الكثيرين منا من ربهم عدمَ معرفتهم به، وعدم المعرفة يقود إلى استسهال تخطي حدوده والتعدي على حرمة ساحة قدسه، بارتكاب المعاصي وإهمال الواجبات، والتخبط في المسير في الحياة بمعزل عما تقتضيه العبودية الحقة للمولى (جلّ وعلا). وعن ارتباط المعرفة الإلهية بالخوف قال رسول الله ﷺ: «من كان بالله أعرف كان من الله أخوف»[١]، وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أعلم الناس بالله سبحانه أخوفهم منه»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٣: ١٧٧.
(٢) نفسه.

وإنّ من مصاديق هذه المعرفة بالله وتجلياتها أنْ نعرف أنّ الله سبحانه على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء، وأننا نحن البشر مهما قويت قدراتنا وازدادت إمكاناتنا فإننا أعجز من أن نخرج عن سلطان قدرته، فضلًا على أن نرتكب حماقة التفكير في تحديها؛ لذا فلا محيص لنا عن الخوف من عذابه والرجوع إلى طريقه. هكذا يربّينا تذكّر عظيم قدرته، مثلما يربّينا أيضًا استحضار جسيم نعمته علينا؛ ولهذا وجدنا الإمام عليًا عليه السلام يقول: «ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة»[1].

**الدرس الثالث:**

تعلّمنا الآيات الشريفة ضرورة الحذر في التعامل مع أناس قد يخفون أهدافهم الحقيقية ومراميهم الواقعية خلف شعارات وادعاءات غير حقيقية، ويحدث ذلك غالبًا حينما لا يجرؤون على كشف واقعهم؛ لئلا تسقط منزلتهم من النفوس ويخسروا قاعدتهم الشعبية المغترة بهم. في الآيات الثلاث ذكرٌ لمن كان

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥، ص ٢٧٠.

يتظاهر بأنّ إنكاره المعادَ راجع إلى عدم قدرته على الاقتناع به ووجود شبهة لديه مانعة له من تقبّل إمكانية جمع العظام التي فرّقها وفتّتها الموت، لكن هذا كله لم يكن سوى غطاء يغطي به واقعه المريض، ذلك الواقع الذي فضحه القرآن إذ صرّح بأنّ إنكار المعاد لم يكن إلا لرغبة الفجور طوال العمر.

مثل هذه الحالة التي حدّثتنا عنها الآيات قد نواجهها في حالات غير نادرة في الحياة، فما أكثر الأفراد والمؤسسات والجهات والدول التي تتشدق بشعارات براقة وتحمل لافتات جذابة من قبيل العدالة والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان... وغيرها، وهي ليست في الواقع سوى أغطية لإخفاء أهداف شيطانية خبيثة تتمثل في المصالح الخاصة، وتلبية المطامع، والرغبة في الاستغلال والتحكم في الآخرين ونهب خيراتهم. مثل هذه الأهداف قد تنطلي على البسطاء السذّج من الناس، لكن هيهات أن ينخدع بها المؤمن الحقيقي الواعي الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل»[1].

(١) ميزان الحكمة ٧: ٤٣٧.

**الدرس الرابع:**

تنبّهنا الآيات الكريمة على باعث خطير من بواعث الانحراف الفكري والسلوكي لدى الإنسان، ومع هذا فقد لا ينتبه كثير من الناس إليه. هذا الباعث هو الرغبة في الفجور: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

إنّ مورد حديث الآيات هو الإنسان الذي يكذّب بيوم الدين ليس لشيء، إلا لأنه يريد أن يبقي الحبل على الغارب لهواه وشهوته طوال مدة بقائه حيًا. ولمّا كان يعلم أنّ الإيمان بالثواب والعقاب يحول بينه وبين فجوره، فلا مناص له، إذًا، من إنكار ذلك وجحوده.

ومثله أيضًا الإنسان الذي تدعوه رغبته في الفجور إلى أن يصر على سلوك طريق المعاصي والذنوب، متجافيًا عن طريق الطاعة والعبادة، فتقوده رغبته هذه إلى خسارة آخرته ووقوعه في كل محنة. فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من أطاع هواه، باع آخرته بدنياه»[١]، وعنه عليه السلام أيضًا قوله: «إياك وطاعة الهوى فإنه يقود إلى كل محنة»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٨٠.
(٢) نفسه.

وغير بعيد عن ذلك من كانت الرغبة الدفينة في الفجور تحرّكه - بوعي منه أو عدم وعي - نحو إنكار بعض الأحكام الشرعية التكليفية أو التشكيك في حقانيتها أو الحكمة من تشريعها، من دون أن يكون ذلك مبنيًا على أسس علمية حقيقية. فما أكثر ما نسمع عن ناس يشككون - إن لم يكونوا ينكرون من أساس - في أحكام شرعية تتعلق بحرمة الربا، أو وجوب الحجاب على المرأة، أو حرمة اللعب بألعاب القمار ولو من دون رهان، أو حرمة الاستماع للغناء، أو ما جرى هذا المجرى، من غير أن يكونوا من المتخصصين بعلم الفقه والقادرين على مناقشة الأدلة الشرعية التي استند إليها الفقهاء في أحكامهم الفقهية. الباعث إلى كل هذا في كثير من الأحيان - وليس في كلها - هو الباعث نفسه الذي حدثتنا عنه الآيات: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، إنها الرغبة في عدم الالتزام بالحكم الشرعي، لا تريد أن تفصح عن نفسها بلا مواربة، فتتستر تحت غطاء إعادة قراءة التراث الفقهي، أو تجديد الفكر الديني، أو نقد الموروث... إلى ما هناك من عناوين خلابة براقة!

**الدرس الأخير:**

إذا كان إنكار المعاد مرتبطًا بالفجور والانحراف، فإنّ مقتضى ذلك أن يكون الإيمان بالمعاد مرتبطًا بالتقوى والالتزام الديني، فالمؤمن بالقيامة والثواب والعقاب لا بد أن يدعوه إيمانه هذا إلى التقيّد الدقيق بالشرع الإلهي وإطاعة ما يريده المولى - جلّ وعزّ - في كل جوانب حياته الصغيرة والكبيرة.

لكن أي إيمان هذا الذي يتكفل بذلك؟

إنه قطعًا ليس الإيمان بالمعنى الضيق القاصر الذي يفهمه بعض الناس، أعني الاعتقاد الفكري المجرد الذي يظل محصورًا في دائرة المعرفة الفكرية وحدها، من دون أن يتجاوزها إلى الإحساس القلبي والتفاعل الوجداني المؤثر في كيان الإنسان بكامله. فمثل هذا ليس كفيلًا بإحداث تأثير حقيقي في حياة صاحبه وتحريكه في الاتجاه الإلهي الصحيح.

الإيمان الحقيقي المؤثر بالآخرة هو الذي وصفه رسول الله ﷺ بـ «الهمّ»، وواضحةٌ دلالة هذه الكلمة على التفاعل الوجداني الحقيقي، فقال: «من كانت الآخرة همّه، جمع الله شمله، وجعل غناه بين عينيه، وأتته الدنيا وهي

راغمة. . .»[١]. وهو الإيمان الذي عبّر عنه الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام بـ «الشوق» و«الشفقة»، وهما أيضًا كلمتان مشبعتان بالدلالة الوجدانية، في قوله: «اعلموا أنه من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الحسنات، وسلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار بادر بالتوبة إلى الله من ذنوبه، وراجع عن المحارم»[٢].

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٨.
(٢) نفسه ١: ٣٨.

## ٩ - التربية ضد الفساد الاقتصادي

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾[1].

تتعرض هذه الآيات الكريمة لتربية الناس من ناحية معيّنة، على درجة كبرى من الأهمية، هي الناحية الاقتصادية والتعامل التجاري فيما بينهم. وقد روي في سبب نزولها عن ابن عباس أنه قال: «لمّا قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[2].

(١) سورة المطففين، الآيات: ١ - ٦.
(٢) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ص ٣٢٦.

تبتدئ الآيات بدأةً قوية بخطاب مزعزع للنفوس ومروّع للقلوب: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، و«الويل» كلمة تأتي لمعانٍ عدة، كلها خطير ومخيف، أهمها: الحزن، والشر، والمشقة، والهلاك، ووادٍ مهيب في جهنم. و«التطفيف» هو من التقليل، والمراد هنا البخس في الكيل والوزن.

الآيات، إذًا، تتوعد المطففين وعيدًا شديدًا، ثم تصفهم، في آيتين لاحقتين، بأنهم يتعاملون تجاريًا مع الناس تعاملًا ذا وجهين مختلفين: فإذا كانوا في وضع اكتيال، أي كانوا في حالة شراء، فإنهم يستوفون الكيل، ولا يرضون حتى يأخذوا أكثر مما يستحقون، لكنّ سلوكهم هذا ينعكس إلى ضده إذا كانوا في وضع كيل أو وزن للآخرين، أي كانوا في حالة بيع لغيرهم، إذ تراهم يُخسرون، أي يعطون الناس أقل مما يستحقون.

وثمة ملحوظة هنا تجدر الإشارة إليها، وهي اختلاف التعبير القرآني في حالة الشراء عنه في حالة البيع، فبينما اكتفى في حالة الشراء بالتعبير بالكيل وحده، عبّر في حالة البيع بالكيل والوزن معًا، فما يمكن أن يكون السر في ذكر الوزن في حالة العطاء فقط دون الأخذ؟

أجاب بعض المفسرين بأنّ هذا الاختلاف التعبيري راجع إما لأنهم كانوا يشترون البضائع بالجملة وبكميات كبيرة، فلمّا لم يكن عندهم ميزان كبير يكفي للمهمة كانوا يلجؤون إلى الاكتيال وحده. لكن الوضع كان يختلف في حال البيع، إذ كانوا يبيعون بالجملة تارة وبالتجزئة تارة أخرى، فكان يمكنهم أن يستعملوا ما يريدون من الكيل أو الوزن.

وإما أن يكون هذا الاختلاف التعبيري إشارة إلى أنهم كانوا في حالة الشراء يكتفون بالكيل لصعوبة الغش فيه، لكنهم في حالة البيع كانوا يرغبون في الغش والإنقاص؛ لذا استعملوا الوزن أيضًا[١].

وبعد الفراغ من وصف هؤلاء وفعلهم في حالي الشراء والبيع، عرضت الآيات سؤالًا ذكر بعض المفسرين عنه أنه «للإنكار والتعجيب»[٢]، وذكر بعضهم أنه توبيخي[٣]، يقول: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾، أليس عندهم إيمان بيوم القيامة؟ اليوم المهول المليء بالشدائد

(١) راجع كلام صاحب «الأمثل» ٢٠: ١٤.
(٢) الميزان ٢٠: ٢٣١.
(٣) الأمثل ٢٠: ١٥.

وعظائم الأمور الذي يقوم فيه الجميع ويُنشرون من قبورهم ليواجهوا الحساب الذي ينتظرهم عند رب العالمين. وإن كانوا مؤمنين فعلًا بذلك اليوم المهيب، فلماذا لا يظهر أثر هذا الإيمان في سلوكهم وأفعالهم؟

وتحسن الإشارة هنا إلى أنّ الظن المذكور في الآيات الشريفة محل الكلام قيل إنه بمعنى العلم، ومثل هذا الاستعمال وارد في غير هذا الموضع من القرآن الكريم أيضًا، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، فالظن هنا من الواضح أنه بمعنى العلم واليقين. وقيل أيضًا إن الظن في محل الكلام هو بمعنى الظن المعروف، أي الرجحان غير البالغ مبلغ القطع والجزم، والمعنى عندئذ أن مجرد الظن بوجود يوم القيامة جدير بأن يمنع هؤلاء عن سلوكهم، فكيف لا يرتدعون عنه وهم جازمون بذلك اليوم ومتأكدون من مجيئه حتمًا؟

ونتوقف في الآيات الشريفة عند مواضع للفائدة:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

**الموضع الأول:**

تدلنا هذه الآيات، كآيات أخرى غيرها، على مدى أهمية صلاح حال الأوضاع الاقتصادية وعدم تطرّق الفساد إليها في تحقق السعادة والاستقرار لأفراد أي مجتمع من المجتمعات، فلولا ذلك لما أعطت الآيات كل هذا الاهتمام لقضية التطفيف والغش في المعاملات.

وأهم الأشياء المطلوبة في هذا المجال ضرورة العمل على وقاية المجتمع من ظهور المفاسد الاقتصادية والحيلولة دون وجودها، وهذا يتطلب من العاملين في الحقل الاقتصادي الدقة في تعلّم الأحكام الشرعية الفقهية؛ كي يعرفوا ما لهم وما عليهم، وما ينبغي لهم وما يجب اجتنابه. ومن هنا روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان يقول على المنبر: «يا معشر التجار، الفقه ثم المتجر» (ثلاثًا)، ثم يقول: «التاجر فاجر، والفاجر في النار، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»[1].

وليس تعلّم الأحكام الشرعية وحده مجديًا في تحقيق

(١) الأمثل ٢٠: ١٦.

الرقابة المرجوة من المفاسد ما لم تقترن معه التقوى، فهي الرادع النفسي عن أي انحراف، والضمانة الداخلية التي تحول بين المرء والتعدي على حقوق الآخرين وتناسي أحكام الشرع؛ لذا نقل التاريخ لنا أنّ الإمام عليًا أمير المؤمنين عليه السلام كان يحرص على التطواف في أسواق الكوفة أيام خلافته، وبيده الدرّة ليؤدب بها من يتعدى الحدود الشرعية في معاملاته، وهو يقول: «يا معشر التجار، اتقوا الله عز وجل»[١].

**الموضع الثاني:**

بعد خطوة الوقاية من المفاسد الاقتصادية، تأتي الخطوة اللاحقة، وهي كيفية التعامل مع تلكم المفاسد إن ظهرت فعلًا في مجتمع ما. وتدل الآيات الكريمة على خطوتين ضروريتين في هذا التعامل:

فأما الخطوة الأولى فهي فضح هؤلاء الفاسدين المفسدين وعدم التستّر عليهم وعلى جرائمهم الاقتصادية؛ لأنّ التستر سيجعلهم يشعرون بالأمان فيتمادون في أفعالهم ويزدادون في

(١) الأمثل ٢٠: ١٦.

طريق الغي توغلًا، من دون رقيب اجتماعي أو حسيب وجداني. وقد كان القرآن الكريم حازمًا وحاسمًا في فضحهم والإعلان عن جرائمهم حين توعّدهم في بدء السورة بالويل، وكفى به تعبيرًا كاشفًا عن عدم السكوت على ما يفعلون.

وأما الخطوة الأخرى فهي الوقوف العملي بوجوه أولئك المفسدين واتخاذ الخطوات العملية الكفيلة بإيقافهم عند حدهم ومنعهم من التمادي في فسادهم، ففضحهم لا يكفي ما لم يستتبع عملًا مخلصًا وجادًا لإصلاح الأوضاع الاقتصادية والقضاء على المفاسد بكل أشكالها وتجلياتها، وهذا ما تشير إليه «ويل» أيضًا بما فيها من أبعاد دلالية تتعلق بالحزن والشر والمشقة والهلاك، مما يكشف عما ينتظر هؤلاء المفسدين من عواقب. وهذه، وإنْ كان ظاهرها أنها في الآخرة، تشير إلى أنّ الموقف منهم ليس موقف التساهل والتغاضي والتسامح.

والحقّ أنّ في الروايات الشريفة دلالة على أنّ هذه الكلمة (الويل) لها أبعاد أكبر من هذا، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «ولم يجعل الله الويل لأحد حتى يسميه كافرًا، قال الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾»[1]،

(١) تفسير نور الثقلين ٥: ٥٢٧.

وقال العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي تعليقًا على الرواية: «وما نستفيده من هذه الرواية هو: إنّ التطفيف فيه وجه من الكفر»[١]. وإذ قد اتضح هذا، فقد تبيّن مدى تأكيد الإسلام خطورة التطفيف بوصفه مثالًا على المفاسد الاقتصادية، وظهر أيضًا كبير حرصه على التعامل الجاد في هذا المجال، وقايةً وعلاجًا.

**الموضع الثالث:**

صلاح حال المجتمع موقوف على أن يعطي كلٌّ منا الآخرين حقوقهم التي هي لهم مثلما يحب أن يأخذ منهم حقوقه غير منقوصة، فالحقوق لا بد أن تراعى بنحو متبادل؛ كي يستقر المجتمع وتأخذ العدالة مجراها الطبيعي فيه. وإلّا فلو حرص كل واحد منّا على أن يستوفي أخْذ كل حقوقه، وجعل، في المقابل، يماطل في منح الآخرين ما يستحقونه ويسعى إلى غمط حقوقهم، لما عرف المجتمع سبيله نحو الرقي والتطور، ولظلت نفوس أفراده ملأى بالشحناء والبغضاء والأحقاد. وقد عرضت الآيات الشريفة صورتين

(١) الأمثل ٢٠: ١٣.

متناقضتين لأولئك الذين تحدثت عنهم: فبينا تراهم حريصين على استيفاء ما لهم إذا اكتالوا على الناس، تراهم أيضًا يسعون إلى الإنقاص إذا كانوا هم الذين يكيلون أو يزنون.

إنّ الإسلام يريدنا دومًا أن نفكر في حقوق الآخرين بالاهتمام نفسه الذي نفكر به في حقوق أنفسنا، والدقة ذاتها التي تجعلنا نطالب بحقوقنا ينبغي أن تجعلنا نحرص أيضًا على أن نوصل للآخرين حقوقهم. وهذا هو ما عبّر عنه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بـ «الميزان» إذ قال: «اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك»[1].

وتقوم الحياة الاجتماعية على التعاملات المتبادلة، والحقوق المتقابلة، والأخذ والعطاء، وتنبني هذه على التوازن، والفعل ورد الفعل، والمعاملة بالمثل؛ لذا كان لزامًا على كل عاقل حريص على سعادته وسعادة مجتمعه أن يعامل الناس بالكيفية نفسها التي يريدهم أن يعاملوه بها، وهو ما

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٣٩٧.

أوصى به الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في قوله: «صاحب الناس مثل ما تحب أن يصاحبوك به»[١].

**الموضع الأخير:**

للإيمان بالآخرة أثره الكبير في تربية الإنسان التربية الإلهية الصالحة في سلوكه الفردي والاجتماعي، فهذا الإيمان يضبط الإنسانَ من داخله، ويدعوه إلى التحكم في نفسه، والحرص على أداء حقوق الآخرين إليهم كاملة غير منقوصة، ويمنعه من الظلم والتعدي والتجاوز؛ لذا وجدنا الآيات تسأل بطريقة تحمل قدرًا غير قليل من التوبيخ الممتزج بالتعجب: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

لكن المهم في هذا الإيمان لكي يكون مؤثرًا في التربية السلوكية أن يكون حاضرًا بالفعل في العقل والوجدان، أي أن يكون «ذكرًا» بتعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ذكر الآخرة دواء وشفاء، وذكر الدنيا أدوء الأدواء»[٢]. أما أن

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣١٦.
(٢) نفسه ١: ٣٦.

يكون المرء موقنًا بالآخرة من دون أن يكون يقينه هذا حاضرًا في نفسه، وماثلًا في وجدانه، بل يكون عنه غافلًا، وفي نومته سادرًا، فهذا لا يجدي في تربيته التربية الناجعة المؤثرة.

ويفيدنا الإمام علي عليه السلام أيضًا في كلمة له أخرى أنّ المطلوب ليس الذكر للآخرة فحسب، بل الإكثار منه، وذلك قوله عليه السلام: «من أكثر ذكر الآخرة قلّت معصيته»[١]. نعم، إنّ الإكثار من ذكر الآخرة ينزع من القلب حب الدنيا والتعلق بها، ما دامت متاعًا فانيًا زائلًا، ويجعل المرءَ متطلعًا إلى دار البقاء والخلود التي هي دار الحياة الحقيقية، ويدفعه هذا التطلع، ولا غرو، إلى الابتعاد عن أي نوع من الظلم للعباد والتعدي على حقوقهم.

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣١٦.

# ١٠ - التكذيب والأمر المريج

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾[1].

تنقل الآية الكريمة الأولى حقيقة تاريخية عرض لها القرآن الكريم في مواضع متفرقة منه، وهي حقيقة أنّ المشركين المعاصرين للنبي الأكرم محمد ﷺ استغربوا أن يبعث الله إليهم بشرًا رسولًا، فهم كانوا يتوقعون أن يكون المرسل ملكًا من الملائكة وليس بشًرا مثلهم؛ لذا قالت الآية الأولى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، والمراد

(١) سورة ق، الآيات: ٢ - ٥.

من «منهم» - بناءً على ما ذكره أغلب المفسرين - أي من جنس البشر. وقيل إنّ المراد: من العرب، فيكون الكلام الإلهي عندئذ أوقع في تقريعهم، وكأنه خاطبهم بأنّ هذا الذي اخترناه حمل رسالتنا إنما هو رجل منكم أيها العرب، ولم يأتكم من أمة سواكم، فلماذا تكذبونه وتجحدون الحق الذي جاءكم به؟

ومهما يكن من أمر، فإنّ عند المفسرين كلامًا في المشار إليه باسم الإشارة «هذا» في ذيل الآية الأولى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، فمنهم من ذكر أنّ الإشارة هنا هي إلى الشبهة الأولى المتقدمة، وهي كون المنذر واحدًا منهم[١]، ومنهم من ذهب إلى أنها إشارة إلى الشبهة اللاحقة المتعلقة بالتكذيب بالبعث[٢].

الشبهة اللاحقة المقصودة هي قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، إنهم يستعملون أسلوب الاستفهام، وهو للتعجيب، يُظهرون به إنكارهم وجحودهم وعدم تقبلهم لفكرة البعث، ويردفون الاستفهام بأسلوب شرط، يذكرون فيه أداته

(١) اختار هذا الرأي صاحب الأمثل ١٧: ١٠، مثلًا.
(٢) راجع مثلًا: الميزان ١٨: ٣٣٨.

وفعل الشرط ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، ويحذفون جوابه؛ لكونه مفهومًا، وتقديره: نُبعث ونُرجع؟ ثم يجيبون عن استفهامهم بما اشتهته أهواؤهم وارتأته نفوسهم المريضة: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، و«رجع» هو بمعنى رجوع، و«بعيد» أي يستبعده العقل.

وتنتقل الآية اللاحقة إلى الرد على هؤلاء الذين قالوا ما نقلته الآية السابقة، فتوضح حقيقةً كان عليهم أن يستحضروها لئلا يقعوا فيما وقعوا فيه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾، إننا نعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم، فلا يغيب عن علمنا شيء، فلا ينبغي لهم أن يتوهموا أنّ تفرّق أجزاء الموتى في الأرض وتحلّلها فيها سيمنعنا من بعثهم يوم القيامة، فلدينا علم بكل أجزائهم الموزعة، وكل ذلك مذكور في الكتاب الحفيظ الذي هو اللوح المحفوظ بناءً على ما ذهب إليه معظم المفسرين.

وثمة من المفسرين من اختار أنّ الكتاب الحفيظ المذكور هو كتاب الأعمال، لكن العلامة الطباطبائي (قدس سره) رفض هذا الرأي؛ لأنّ الحفظ الذي تتحدث عنه الآية ليس حفظ الأعمال، بل هو حفظ الأجزاء المتفرقة من أجسادهم

بعد مماتهم، ثم إنّ الله تعالى قد وصف في كتابه اللوح المحفوظ بصفة الحفظ، ولم يصف كتب الأعمال بذلك[١].

وتستهل الآية الأخيرة كلامها ببدأة صادمة حين تستعمل حرف الإضراب «بل»، فتضرب به عن المعنى اللائح من الكلام السابق من كون أولئك الكافرين جاهلين، يريدون التوصل للحق فلا يتمكنون، ويبحثون عن طريق النجاة فلا يجدونه. كلا، ليسوا كذلك على الإطلاق، بل هم قوم مكذبون بالحق، جاحدون له، تاركونه بعد إذ عرفوه وميّزوه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

والأمر المريج هو المختلط، وقد استحقوا أن يوصفوا بأنهم فيه إما لكونهم يعلمون الحق ومع هذا فهم يميلون إلى تكذيبه وعدم الأخذ به، وإما لأنهم متحيرون بعد الإنكار لا يعرفون ما يقولون: فتارة يقولون هو سحر، وتارة هو افتراء، وتارة شعر، وتارة كهانة إلخ.

وقد ورد في الخبر أنّ الآيات الكريمة نزلت في أبيّ بن خلف، قال لأبي جهل: تعال إليّ لأعجّبك من محمد، ثم أخذ عظمًا ففتّه، ثم قال: يزعم محمد أنّ هذا يُحيا، فقال

(١) الميزان ١٨: ٣٣٩.

الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ يعني مختلفًا[١].

ولنا مع الآيات الشريفة وقفات للتزوّد منها:

**الوقفة الأولى:**

تنبّهنا الآيات الكريمة على خطورة الاعتماد على التعجّب البحت والاستبعاد المحض في رفض فكرة ما والتنكر لها، لا سيما حينما تكون تلك الفكرة مرتبطة بموضوع له أهمية خاصة في حياة الإنسان ومصيره كموضوع العقيدة.

تصرّح الآيات بأنّ هؤلاء الكافرين قد بنوا رفضهم - ولو في الظاهر - على تعجبهم ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ وعلى استبعادهم ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، مع وضوح أنّ هذا الاستبعاد وذلك التعجب لم يقوما على أساس من البحث والتحقيق ومحاولة الفهم، بل كانا نابعين من الجهل، فكان هؤلاء الناس أعداء ما جهلوا، وهذا الشيء حذّرتنا منه نصوص شرعية متعددة، كقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مثلًا: «لا تعادوا ما تجهلون، فإنّ أكثر العلم فيما تجهلون»[٢].

---

(١) تفسير القمي ٢: ٣٢٣.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ١٦٠.

إنّ مشكلة بعض الجاهلين، وهي ابتلاء لمن يعايشهم ويتعامل معهم أيضًا، أنهم لا يدركون كونهم جاهلين، فيكون الجهل عندهم مركّبًا، فتراهم يتطاولون على العلماء، وينبرون لمعارضتهم ومخالفتهم، حبًا للظهور وتعشّقًا للشهرة، ويقودهم هذا إلى معاداة ما لا يفهمونه، وتخطئة ما لا يستوعبونه، بلا حجة ولا دليل، إنما هي اللجاجة تقودهم، والعصبية تستبد بأمرهم. وهذه حالة وصفها الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بدقة فائقة إذ قال:

«إنّ الجاهل من عدّ نفسه بما جهل من معرفة العلم عالمًا، وبرأيه مكتفيًا، فما يزال من العلماء مباعدًا، وعليهم زاريًا، ولمن خالفه مخطّيًا، ولمن لم يعرف من الأمور مضلّلًا، وإذا ورد عليه من الأمر ما لا يعرفه أنكره وكذّب به، وقال بجهالته: ما أعرف هذا، وما أراه كان، وما أظن أن يكون، وأنّى كان، ولا أعرف ذلك، لثقته برأيه وقلة معرفته بجهالته...»[1].

(١) نفسه ٢: ١٥٦.

**الوقفة الثانية:**

على الإنسان ألّا يثق كل الثقة في ما يراه من قُبح أو حُسن في الأشياء، فلربما تكون رؤيته غير دقيقة، فيَستحسن القبيح ويَستقبح الحسن. لا نتحدث هنا عن الحسن والقبح العقليين اللذين هما مورد خلاف عند المدارس الكلامية الإسلامية، وإنما الكلام هنا عن إطلاق صفة الحسن أو صفة القبح على شيء ما اعتمادًا على رأي ذاتي أو خاطر شخصي أو انطباع فردي ليس غير.

تكررت في القرآن الكريم الإشارة - كما تقدم ذكره - إلى أنّ المشركين كانوا يرون من السيئ القبيح أن يبعث الله بشرًا رسولًا، وكان ذلك مثارًا لتعجبهم واستبعادهم، مثلما تقدم في الآيات محل البحث، ربما لأنهم كانوا لا يرون للبشر من الصلاحية والقابلية ما يؤهلهم لنيل هذا التكريم الإلهي العظيم والفضل الرباني الجزيل. لكن الواقع هو أنّ هذا الذي استقبحوه هو أمر حسن في الحكمة الإلهية؛ فكون الرسول بشرًا هو الذي يؤهله ليكون قدوة وأسوة للناس الذين جاء لهدايتهم إلى الحق، بخلاف ما إذا جاءهم رسول من غير أنفسهم، وبطاقاتٍ تفوق طاقاتهم وقابليات لا يمتلكون ما

يضاهيها، فإنهم آنئذ لن يستفيدوا إلا من تعاليمه النظرية، من دون أن يجدوا فيه لأنفسهم قدوة عملية في السلوك والعمل. أضف إلى ذلك أنّ كون المرسل إليهم مثلهم في البشرية يجعله أقرب إلى فهم طبائعهم ونفوسهم وما ينقصهم وطرائق تفكيرهم وكل ما يتصل بحياتهم. وهذا أدعى إلى توفيقه في مهمته ونجاحه في الغاية التي بُعث إليهم من أجلها.

موقف المشركين، إذًا، مثال واضح على حقيقة أنّ الإنسان أحيانًا لربما يرى الواقع على غير ما هو عليه، فيتجلى أمامه الحَسَن في صورة القبيح، ويظهر له القبيح في لبوس الحسن، وتختلط آنئذ الرؤية أمامه وتضيع الحقائق، ويكون جهله بالواقع داعيًا له إلى أن يذمّ ما هو حسن ويمتدح ما هو قبيح، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من جهل شيئًا عابه»[1].

إننا إذا فتحنا آفاق فكرنا لهذا الاحتمال - أعني احتمال أن يكون ما نراه من حسن أو قبح في الأشياء مبنيًا على خطأ - سيكون في وسعنا إذ ذاك أن نربي أنفسنا ومجتمعاتنا على احترام الرأي الآخر الذي لا يتفق معنا، وإعطائه الحق في

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٦٠.

الوجود دونما إقصاء أو إلغاء، ما دام الجميع يتحرك ضمن دائرة ما لا يتعارض مع المسلّمات العقلية والثوابت الشرعية التي هي من ضروريات الدين.

وإلى جانب هذا، يفتح الاحتمال المذكور المجالَ أمامنا لمراجعة ما نتبناه من أفكار بصورة دائمة، حتى لا نقيم بناءنا الفكري على أسس واهية من دعامات كنا نحسبها حقائق ثابتة، وإذا هي ليست سوى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء!

**الوقفة الثالثة:**

الملاحظ في الأسلوب القرآني بنحو عام - والآيات محل الكلام هي مثال واضح على هذا - أنه يتعامل مع الشبهات التي يثيرها أمامه الكافرون والمنافقون في المجال العقدي تعاملًا فيه قدر غير يسير من الاهتمام والعناية، فهو لا يضرب صفحًا عن تلك الشبهات دون أن يجيب عنها ويردها على أصحابها، ولا يتركها نسيًا منسيًا من دون أن يعالجها من أساسها وينقضها من أصلها.

هذا التعامل القرآني يكشف بجلاء عن النهج الفكري الذي يريدنا الإسلام أن نتصرف في ضوئه مع ما يمكن أن يثار في أي زمان أو مكان من أسئلة أو اعتراضات أو شبهات في

مجال العقيدة الدينية، مهما كان الدافع من وراء إثارتها مريبًا أو بريئًا. ففي كل الحالات، لا يصح أن تُترك هذه الإثارات بلا ردّ من جانب المتخصصين المؤهلين علميًا للرد عليها؛ ذلك أنّ إهمالها قد يؤدي إلى ترسيخها وتجذيرها على مر الأيام، بل قد يقود أيضًا إلى توالدها وتشعّبها.

إنّ المشكلة عند معظم الناس أنهم بطبعهم حين يقرؤون أو يستمعون إلى شبهة عقدية ما - لا سيما في هذا الزمان الذي هو عصر الانفتاح المعرفي وتطور وسائل التواصل الاجتماعي - فإنهم لا يتوقفون عندها مستفسرين سائلين بقصد الوصول إلى الحق، بل تراهم يقعون في وهدة التشكيك في عقائدهم، ولربما يتراجعون عن بعض ما يؤمنون به فيتسببون في وقوع أنفسهم في أخطر النتائج وأبشعها، وهو الكفر والضلال. وعن هذه الحالة وأمثالها قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو أنّ العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا ولم يضلّوا»[1].

وكم من سؤال عقدي غير عميق البنية ولا صعب الإجابة قد قاد صاحبَه إلى انحراف فكري عظيم! ليس ذلك إلا لكونه

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٥٣.

لم يلقَ الإجابة المناسبة في الوقت المناسب، مما أتاح للسؤال أن يتحول إلى شبهة حقيقية ظلت تتعمق وتنخر في ذهن صاحبها إذ لم تجد عنده أرضية فكرية عقدية قادرة على مقاومتها، وهذا يقودنا إلى أنّ المسؤولية هنا مزدوجة: فثمة مسؤولية تقع على عاتق من توجد الشبهة في ذهنه، فإنّ عليه أن يبادر إلى البحث عن ردود وإجابات مناسبة عند أهل الاختصاص والمعرفة بالعقائد الإسلامية، وليس من أي موقع إلكتروني أو قناة فضائية أو أي كتاب أو خطيب!

وثمة أيضًا، إلى جانب ذلك، مسؤولية تقع على أهل الاختصاص هؤلاء، فهم مطالبون بأن يُظهروا علمهم، ويردوا على الأسئلة العقدية، لا سيما تلك التي يُخشى منها أن تترسخ في أذهان الناس، الشبان منهم على وجه خاص، فتتحول إلى شبهات متجذرة يصعب اقتلاعها من جذورها بعد فوات الأوان. وقد حثّت روايات متعددة العلماء على بذل علمهم ونشره وعدم كتمانه، وإلا استحقوا أشد العذاب، فمنها ما عن رسول الله ﷺ من قوله: «إذا ظهرت البدعة في أمتي فليظهر العالم علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله»[1]. ومنها ما عن

(١) بحار الأنوار ٢: ٧٢.

الإمام الصادق عليه السلام من أنه قال: «قرأت في كتاب علي عليه السلام أنّ الله لم يأخذ على الجهّال عهدًا بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهدًا ببذل العلم للجهّال؛ لأنّ العلم كان قبل الجهل»[١].

## الوقفة الأخيرة:

حدّثتنا الآيات الكريمة عن نمط من الناس هو، في الواقع، مكذّب بالحق وجاحد به، لكنه يُظهر للآخرين أنه ليس لديه علم بذلك، وإنما هو غير قادر على التصديق بما جاءه والإيمان به، وقد يخوض مع المحيطين به في نقاشات طويلة عريضة لا طائل تحتها، إنْ هي إلى جعجعة بلا طحن، لمحاولة إظهار أنه يسعى إلى اكتشاف الحق وبلوغه، وما من مانع يمنعه من الأخذ به إنْ هو توصّل إليه.

هذا النمط من الناس لا فائدة تُرتجى من شغل الوقت معه في النقاشات والحوارات؛ لأنه يدرك الحق ومع ذلك يجحده، وليس جاهلًا به كي يُعلّم ويُرشد، فأفضل شيء أن يُترك لمصيره الذي اختاره بملء إرادته وكامل اختياره، فقد

(١) نفسه ٢: ٦٧.

روى عبد الله بن طلحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لن يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار عبد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. قلت: جعلت فداك، إنّ الرجل ليلبس الثوب أو يركب الدابة فيكاد يُعرف منه الكبر، قال: ليس بذاك، إنما الكبر إنكار الحق، والإيمان الإقرار بالحق»[١]، وعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من أبدى صفحته للحق هلك»[٢].

(١) بحار الأنوار ٢: ١٤١.
(٢) نفسه ٢: ١٤٣.

## ١١ - الإنسان في حالي الخير والشر

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾[١].

تعرض الآية الشريفة لحالين اثنتين يمرّ بهما الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وتبيّن أنّ موقفه يكون في كل حال مختلفًا عن موقفه في الحال الأخرى: فأما الحال الأولى فهي حال الخير والنعمة من الله تعالى عليه، وفي هذه الحال نجد الإنسان قد ﴿أَعْرَضَ﴾ أي ولّى ولم يلتفت، و﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وهو من النأي بمعنى البُعد، أي اتخذ لنفسه جهة بعيدة من الله تعالى، وذكر بعض المفسرين أنّ المراد الكناية عن الاستكبار والاستعلاء، فقال الزمخشري مثلًا: «والنأي بالجانب: أن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين»[١].

وأما الحال الأخرى فهي حال الشر، وفيها نجد الإنسان نفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي أصابه الشر إصابة خفيفة كالمسّ، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي كان شديد اليأس من الخير، وهو النعمة. وخلاصة ما أفادته الآية في الحالين أنّ الإنسان متعلق القلب بالأسباب الظاهرية للأشياء، فإذا أنعم الله عليه بنعمة من لدنه، انشغل بالنعمة وأسبابها الظاهرية ونسي ربه ولم يشكره، وإذا لحق به شيء قليل من الشر وزالت عنه بعض أسباب الخير فإنّ ذلك يجعله شديد اليأس من الخير؛ نظرًا لشدة ارتباطه بالأسباب الظاهرية التي يغفل عن كونها صنع الله تعالى وبيده مجرياتها.

وهنا سؤالان قد يتبادران إلى الذهن من الآية الكريمة:

**السؤال الأول**: لماذا اختلف التعبير القرآني في حال النعمة والخير عنه في حال الشر، فالملاحظ أنّ هناك في حال الخير نسبةً صريحةً إلى الله تعالى: ﴿أَنْعَمْنَا﴾، لكن في حال

(١) الكشاف ٢: ٦٩٠.

الشر لم توجد هذه النسبة: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فلم يقل مثلًا: وإذا مسسناه بالشر، فما سر هذا الاختلاف الأسلوبي؟ وهل ثمة من دلالة معنوية كامنة فيه؟

أجاب العلامة الطباطبائي (قدست روحه الزاكية) بأنّ الشر لم ينسب إلى الله «تنزيهًا له تعالى من أن يُسند إليه الشر، ولأنّ وجود الشر أمر نسبي لا نفسي، فما يتحقق من الشر في العالم كالموت والمرض والفقر والنقص وغير ذلك إنما هو شر بالنسبة إلى مورده، وأما بالنسبة إلى غيره، وخاصة النظام العام الجاري في الكون، فهو من الخير الذي لا مناص عنه في التدبير الكلي، فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهية، وهو مراد بالذات، وما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره، وهو مقضي بالعرض»[١].

ويتضمن جواب العلّامة، في الحقيقة، ثلاث إجابات يرتبط بعضها ببعض:

فأما الإجابة الأولى فهي أنّ الاختلاف في التعبير غرضه التأدب مع الله تعالى، فليس يصح من باب الأدب في التعامل

(١) الميزان ١٣: ١٨٥- ١٨٦.

مع رب العالمين أن يُنسب إليه فعل الشر. وكأنّ هذه الإجابة ناظرة إلى التنزيه في العبارة وحدها، فهي إجابة قاصرة ما لم تنضمّ إليها غيرها من الإجابات.

وأما الإجابة الثانية فحاصلها أنّ ثمة اختلافًا واضحًا بين حقيقتي الخير والشر يتمثل في نوع وجود كل منهما، فوجود الخير وجود نفسي، فهو خير محض، لمورده وغيره أيضًا، فالحياة والصحة والسعادة والغنى خير، ووجود هذا الخير لا يتخلف. أما وجود الشر فهو وجود نسبي، بمعنى أنه شر حين ننظر إليه في مورده فقط، لكنه لا يكون شرًا حين ننظر إليه بلحاظ نظام الحياة والقانون العام للوجود، ولنأخذ الموت مثالًا على هذا، فنحن حين ننظر إلى موت زيد مثلًا فإننا نعدّ ذلك شرًا، لكننا إذا نظرنا إلى النظام الكوني الحاكم في هذه الدنيا بنحو عام فإننا لن نعدّ موت زيد عندئذ شرًا، بل هو ضمن القانون العام المرتبط باستمرار الحياة وتوالي الأجيال البشرية جيلًا بعد جيل بنحو متعاقب. فلو لم يكن ثمة موت لأناس لما بقي هناك محل على الأرض للأجيال المتتالية طوال مدة وجود هذا الكائن المسمى بالإنسان. فموت زيد ليس شرًا، بناءً على هذا، بل هو من الخير. وهذا الاختلاف بين الخير والشر اقتضى اختلافًا في التعبير القرآني عنهما.

وأما الإجابة الأخيرة فيشير بها العلّامة إلى اختلاف آخر بين الخير والشر استدعى أيضًا اختلافًا في التعبير القرآني. هذا الاختلاف الآخر ماثل في أنّ الخير داخل في القضاء الإلهي بالذات، بينما الشر داخل فيه بالعرض. وتوضيح ذلك أنّ الله سبحانه خيرٌ محض وكرمٌ بحت وإحسانٌ خالص، وهو الكمال المطلق الذي لا يريد لعباده، في الأصل، إلا الخير وحده، فالخير مراد له سبحانه أولًا وبالذات.

لكنّ النظام التكويني لهذا العالم هو نظام الأسباب والمسببات، واللوازم والملزومات، وهذه قائمة على التداخل والتشابك فيما بينها، فوجود كل شيء له مجموعة من اللوازم المرتبطة به وجوديًا، وقد يكون بعض هذه اللوازم شرًا، فهذه اللوازم الشرّيّة غير مرادة أولًا وبالذات؛ إذ أنّ المراد أولًا وبالذات هو الشيء الملزوم الذي هو خير، لكنها مرادة بالعرض، أي بوصفها لوازم لا بد أن توجد مع وجود ملزومها.

ومثال ذلك أنّ وجود الإنسان هو خير بلا ريب، لكن وجوده يتطلب قائمة طويلة من اللوازم، مثل الصحة والمرض، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والحياة والموت إلخ.

ومن الواضح أنّ هذه القائمة الطويلة تحوي لوازم من الشر، فهذه ليست مرادة بالذات، بل هي داخلة في القضاء الإلهي بالعرَض، فالمراد الإلهي في الأصل هو الخير وحده.

**السؤال الآخر**: ثمة في القرآن الكريم آيات أخرى تدل على أنّ الإنسان في حال نزول الشر به يتذكر الله تعالى ويرجع إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢]، فما بال الآية التي هي محل البحث تدلّ على غير هذا المعنى؟ إذ تفيد أنّ الإنسان في حال الشر يصاب باليأس من الخير؟ وكيف يمكن أن نوفّق بين مدلولها ومداليل غيرها من الآيات؟

أجاب المفسرون[٣] بأنّ للإنسان حالين: حالًا فطرية وأخرى عادية، فحاله الفطرية تجعله عند نزول الشر والضر والشدة به يعود إلى ربه ويلتجئ به، وإنْ كان في الأوقات الأخرى معرضًا عنه وناسيًا إياه، وهذه الحال الفطرية هي التي

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٣) راجع مثلًا: الميزان ١٣: ١٨٦.

تحدثت عنها الآيات الأخرى المشار إليها. وعند الإنسان حال أخرى عادية، هي التي تناولتها الآية محل البحث، وهي حاله عندما تطغى عليه الماديات، ويتعلق قلبه تعلقًا شديدًا بالأسباب المادية الظاهرية، ولا يرى الله تعالى وجودًا ولا تأثيرًا وراءها، فإذا زال بعض تلكم الأسباب، ونزل به الشر والضر، أصابه اليأس من الخير؛ لأنه لا يرى تأثيرًا إلا للأسباب الظاهرة المادية تلك. فالآيات بمجموعها، إذًا، تحدثت عن مدلولين اثنين لأنها تناولت حالين اثنتين للإنسان، فلا منافاة فيما بينها.

وبعد ما تقدم، يحسن بنا أن نتوقف في نواحٍ من الآية المباركة:

**الناحية الأولى:**

من الخطورة بمكان عظيم أن يتعلق قلب الإنسان تعلقًا تامًا بالأسباب الظاهرية المادية وحدها، وينشغل بها دون أن يستحضر في داخله حقيقة كونها مرتبطة بربها، فهو الذي أوجدها، وبيده تأثيرها وعملها، وهو الذي يستطيع أن يسخّر ما شاء منها لمن أراد، ويمنع ما لم يرد في أي وقت أو مكان.

إنّ الخطورة ماثلة أمام هذا الإنسان من جهتين: الجهة

الأولى هي علاقته بربه، والأخرى هي علاقته بالدنيا وأسبابها الظاهرة. فأما من الجهة الأولى فإنّ من الجليّ أنّ ارتباطه بربه لن يكون ارتباط المؤمن الحقيقي الذي يؤمن بعمق بأنّ ربه هو مسبب الأسباب، وإليه يعود الأمر والنهي التكوينيان مثل التشريعيين تمامًا، وبيده لا بيد غيره كل الأسباب والوسائل، وما من صغيرة ولا كبيرة من حوادث هذه الدنيا إلا بقضاء منه وقدر. نعم، سيخسر هذا الإنسان مثل هذا الارتباط القلبي الوجداني بالله تعالى، ويترتب على ذلك أنْ يخسر ما وعد الله سبحانه عباده المرتبطين به، من مثل ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «يقول الله: ما من عبد نزلت به بليّة فاعتصم بي دون خلقي، إلا أعطيته قبل أن يسألني»[١].

وإلى هذا أشار الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «اعتصم في أحوالك كلها بالله، فإنك تعتصم منه بمانع عزيز، ألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز»[٢].

وأما من الجهة الأخرى فإنّ الارتباط بالأسباب الظاهرة

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ٢: ٣٢٦.
(٢) نفسه.

يعني المزيد من التعلّق القلبي بالحياة الدنيا، وهذا له أسوأ الآثار وأخطرها في حياة الفرد والمجتمع والأمة كلها، ففي حال الخير والرخاء سيكون ثمة اغترار بطيبات الحياة ولذائذها الزائلة وغرق كامل فيها إلى درجة تناسي الأهداف السامية الكامنة وراء أصل وجود الإنسان وخلافته لله تعالى في الأرض. وفي حال الشر سيبرز اليأس من وجود الخير، مثلما تقدم بيانه، نظرًا لكون التعلق القلبي مقصورًا على الأسباب المادية الظاهرية وحدها.

والحق أنّ هذا التعلق القلبي، مع ما يترتب عليه من آثار خطيرة، هو من صنع الإنسان نفسه، فهو الذي اختاره وأراده، ولم يكن ثمة في البين أي قهر لإرادته أو فرض على رغبته؛ لذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ما الدنيا غرّتك، ولكن اغتررتَ بها»[1].

**الناحية الثانية:**

علاقتنا مع الله (سبحانه وتعالى) ينبغي لها ألّا تكون ذات صلة بأوضاعنا المادية؛ لأنها إن كانت كذلك فسنكون دومًا

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ٣١٠.

معرّضين لأحد خطرين عظيمين تحدثت عنهما الآية المباركة: ففي حال النعماء والرخاء سنكون عرضة لمرض الاستكبار والاستعلاء، وحسبُنا به من مرض خطير يتهدد حياتنا الفردية والاجتماعية. وفي حال الشدة والشر سنكون في معرض مرض آخر لا يقلّ خطرًا عن سابقه، وهو مرض اليأس من الخير.

والأصل في هذا كله ألّا يؤسس الإنسان علاقته مع ربه تعالى من منطلق مادي تجاري باحث عن الربح الدنيوي الشخصي، بل الإسلام يريدنا أن نترفع في علاقتنا بالله على الربح الأخروي أيضًا، بمعنى أن يكون أساس هذه العلاقة غير قائم على الرغبة في الجنة أو الخوف من النار، وإنْ كان الخوف والرغبة المذكورين مطلوبين في دواخلنا، فالعلاقة أسمى وأعلى درجةً وأعمق منطلقًا. وهذا ما تحدث عنه الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في قسمته المشهورة للعبّاد:

«إنّ قومًا عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإنّ قومًا عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار»[1].

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧ من قصار الحكم، ص ٥١٠.

وعن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام أنه قال: «إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه، فأكون كالعبد المطمع، إن طمع عمل وإلا لم يعمل، أكره أن لا أعبده إلا لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء، إن لم يخف لم يعمل.

قيل: فلمَ تعبده؟

قال: لما هو أهله بأياديه عليّ وإنعامه»[١].

**الناحية الأخيرة:**

من المعلوم أنّ الإسلام يريد للعلاقات الاجتماعية بين الناس أن تتأسس على أساس الصلة بالله تعالى والقرب منه، فمن كان حبيبًا إلى الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك بالنسبة إلينا، ومن كان عند ربنا مبغوضًا فكذلك ينبغي أن تكون حاله عندنا، وقد أولى الإسلام هذه القضية من الاهتمام القدر الذي جعل النبيَ الأكرم محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله»[٢]. وورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيرًا فانظر

(١) ميزان الحكمة ٦: ١٨.
(٢) كنز العمال، المتقي الهندي، ١: ٨٩٩، الحديث ٢٤٦٤١.

إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله عز وجل ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحبّ»[١].

ولمّا كان الأمر كذلك، لم يكن مقبولًا في منظور الإسلام أن نقيم علاقاتنا الاجتماعية على أساس المطامع الدنيوية والمصالح الشخصية، فمن كانت تربطنا به مصلحة دنيوية ما احترمناه وبذلنا وُسعنا في التحبب إليه والتقرب منه، ومن كان عنا بعيدًا، ولم تظهر في الأفق علامة ارتباط مصلحيّ به، قلّ عندنا احترامه، أو في أقل تقدير عاملناه ببرود وعدم اهتمام، مما قد يؤثر في نفسه سلبًا ويصيبه ببعض الامتعاض منّا، كما يلاحظ كثيرًا هذه الأيام. مثل هذه الحالة حذّرنا منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونبّهنا على خطورتها في قوله: «من عظّم صاحب دنيا، وأحبّه لطمع دنياه، سخط الله عليه»[٢].

وروي أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجّلوا له واشتدّوا بين

(١) ميزان الحكمة ٢: ٢٣٣.
(٢) نفسه ٣: ٣٢٤.

يديه: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلُق منّا نعظّم به أمراءنا، فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقّون على أنفسكم في دنياكم، وتَشقَوْن به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب! وأربح الدعة معها الأمان من النار»[١].

وجوهر القضية هو ما بيّنه الإمام علي عليه السلام أيضًا بقوله: «لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا»[٢].

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧ من قصار الحكم، ص ٤٧٥. وذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه: «اشتدّوا بين يديه: أسرعوا شيئًا فنهاهم عن ذلك» (شرح نهج البلاغة ١٨: ١٥٦).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩١، ص ٢٨٤.

# ١٢ - النعمة حين تغدو نقمة

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[1].

هاتان الآيتان المباركتان تتناولان موضوعةً من الموضوعات المهمة والأساسية في حياة كل إنسان منّا، في الناحيتين الفردية والجمعية، وهي موضوعة النعمة. وهما تتناولان هذه الموضوعة بطريقة خاصة مؤثرة إذ تستثيران منها ناحية دقيقة لربما يغفل عنها الكثيرون من المتنعمين بالنعم المختلفة. هذه الناحية هي أنّ على الإنسان ألّا يحسب أنّ كل ما يبدو في ظاهرة نعمة، هو نعمة حقيقية تحقق للإنسان خيرًا،

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥ - ٥٦.

فقد يكون ذلك استدراجًا له من حيث لا يشعر، فتكون النعمة الظاهرية نقمة في الحقيقة والواقع.

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ من الحسبان وهو الظن، ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ الفعل «نمدّ» هو من الإمداد والمدّ، وهو تتميم نقص الشيء وحفظه من أن ينقطع أو ينفد، ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ وهذان مصداقان من أبرز مصاديق النعم التي يكثر انشداد الناس إليها وتعلّقهم بها، ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي نعجّل في إيصال الخيرات إليهم، فنكرّمهم ونزيدهم من فضلنا العميم وخيرنا الوفير لقربهم منّا واستحقاقهم عطاءنا. كلا، ليس هذا إلا وهمًا توهموه، نتيجة جهلهم وغفلتهم عن الواقع، ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّ ذلك إملاء منّا واستدراج لهم، فكلما توغلوا في الجرائم والمنكرات والذنوب زدناهم من هذه النعم الظاهرة.

إنّ هذه الحقيقة القرآنية التي عرضتها هاتان الآيتان لتستثيران في الذهن السؤال البدهي عن الأسباب: فما الذي يجعل النعمة تغدو نقمة؟ ولماذا تكون النعمة استدراجًا إلهيًا للإنسان؟ لا شك ولا ريب أنّ القضية ليست خالية من أسباب؛ فلا شيء في هذا الوجود - مهما صغر وضؤل - يستغني عن السبب، وليس يمكن أن يكون السبب منفصلًا عن

هذا الإنسان نفسه، فهو المسؤول عن واقعه وحالته ومصيره، والأحوال التي تعتري حياته ومسيرته وتؤثر في مستقبله ونتيجته إنْ هي إلا أحوال تتأثر بتصرفاته ومواقفه النفسية والسلوكية، وهذه الأخيرة بمجملها هي المسؤولة أساسًا عن سعادته أو شقائه.

يمكننا بالرجوع إلى النصوص الشرعية الواردة في المقام وكلمات المفسرين والعلماء الوقوف على الأسباب الآتية:

### السبب الأول: التعلق بالأسباب

يرتبط الإنسان منّا بطبعه بعالم المادة والحس ارتباطًا وثيقًا، فهو العالم الأقرب إلى إدراكه ووعيه، ومعه يتعامل في حياته اليومية بنحو شبه متواصل؛ لذا تكون الأسباب المادية الظاهرة للنعم هي محل نظره ومورد اهتمامه، حتى إنه ليغفل عن غيرها، وينسى أنّ الله سبحانه وتعالى هو مسبّبها وموجدها، ولولا أمره وإرادته لما كان لها أدنى تأثير وتسبيب. وما أكثر ما نسمع في حياتنا من يقول مخاطبًا غيره: «لولا وقفتك معي لما تحقق لي مرادي، أو لما وصلت إلى مقصدي»! وهي عبارة تكشف عن مدى تعلّق المتكلم بالسبب

الظاهري المتمثل في وقفة الشخص المخاطَب معه، إذ لا يمكن - في وعيه - أن يتحقق له مراده من دون هذا السبب تحديدًا، وكأنّ الله سبحانه الذي سخّر له هذا السبب ليس بقادر على أن يسخّر له سببًا غيره في حال عدم وجوده!

إنّ مثل هذا التعلق الشديد بالأسباب الظاهرة سيأخذ بالترسخ والتعمق، إن لم يرجع الإنسان إلى ربه ويعي فضله، وآنئذ سيزداد الإنسان بُعدًا عن ربه كلما ازدادت النعم عنده، فتكون النعمة عندئذ نقمة واستدراجًا.

ولأهمية القضية وخطورتها، نجد الآيات القرآنية تكرّر تذكير هذا الإنسان بأنّ النعم هي من الله سبحانه

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾[1].

- ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾[2].

- ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

- ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١].

- ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٢].

وفي الروايات الشريفة تركيز واضح أيضًا على هذا التذكير، فمن ذلك مثلًا ما ورد في وصايا أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل بن زياد: «يا كميل، إنه لا تخلو من نعمة الله عز وجل عندك وعافيته، فلا تخلُ من تحميده، وتمجيده، وتسبيحه، وتقديسه، وشكره، وذكره على كل حال»[٣].

وعنه عليه السلام أيضًا قوله: «لم تَخْلُ من لطفه مطرف عين، في نعمة يُحدثها لك أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك»[٤].

## السبب الثاني: الأمن من العقاب الإلهي

ربما تجعل النعم الحسية المادية الإنسانَ يرى نفسه قريبًا من ربه، وقربُه هذا هو سبب استحقاقه لهذه النعم، فلولا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ٩٩.
(٤) نفسه.

القرب لما نالها ولما حظي بها إطلاقًا. والآيتان الشريفتان تتحدثان عن هذه الحالة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

والمشكلة الكبرى في هذه النظرة أنها تجرّ صاحبها إلى الأمن من العقاب الإلهي والأمن من مكر الله تعالى كما ذكر صاحب الميزان[١]، فما دام يمتلك هذا القرب الإلهي الذي يؤهله لكل تلك النعم، فلماذا إذًا يخاف العقاب؟ وأنّى للمكر الإلهي أن يطرق بابه؟ وإذا ما تحقق في القلب الإنساني الشعور بالأمن من العقاب كان ذلك سببًا لتحوّل النعمة إلى نقمة واستدراج، ومن هنا وجدنا الروايات الشريفة تحذّرنا أيما تحذير من الغفلة عن أنّ النعمة قد تكون استدراجًا، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من وُسّع عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك استدراجًا فقد أمن مخوفًا»[٢].

وتدل بعض الروايات على أنّ النظرة الواقعية عند الإنسان ينبغي أن تجعله يرى رؤية معاكسة لتلك التي كان يراها المذكورون في الآيتين الكريمتين، بمعنى أنّ عليه أن يرى

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٥: ٣٩.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٥: ٢١٤.

النعم المادية الدنيوية سببًا للبُعد عن الله تعالى، وليست علامة على القرب منه، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا قترتُ عليه شيئًا من الدنيا، وذلك أقرب له مني، ويفرح إذا بسطتُ له الدنيا، وذلك أبعد له مني، ثم تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ثم قال: إنّ ذلك فتنة لهم»(١).

والإنصاف أنّ تتابع النعم على الإنسان ينبغي أن يشعره بضرورة شكر المنعم (جلّ وعلا) وعدم ارتكاب ما يوجب عقابه، فعليه أن يكون خائفًا من هذا العقاب، لا أن يأمنه ويستنيم إلى غفلته، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة»(٢).

## السبب الثالث: النظرة الضيقة إلى دائرة النعم

ثمة ناس لا يعرفون للنعمة مصداقًا إلا هذه النعم الدنيوية

(١) تفسير نور الثقلين ٥: ٩١.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٩٩.

المادية الزائلة التي يتمتعون بها أيامًا قلائل ثم يتركونها أو تتركهم، وهم في غفلة عجيبة عن النعم النفسية والروحية التي هي الأساس في تحقيق السعادة الخالدة التي خلقوا لنيلها، وهي الأصل في إيصالهم إلى الأهداف السامية للحياة.

المذكورون في الآيتين الكريمتين كانت عندهم مثل هذه النظرة القاصرة الضيقة؛ لذا وجدناهم يعدّون النعم المادية من مال وبنين سببًا للحظوة عند الله والقرب منه، دون أن يعرفوا للنعمة مصاديقها الحقيقية التي من شأنها أن تحقق القرب الذي كانوا يتشدقون به!

وعن حاملي هذه النظرة الضيقة لدائرة النعم قال رسول الله ﷺ: «من لم يَرَ لله عز وجل عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو ملبس فقد قصر علمه ودنا عذابه»[1]. وهذا معناه أنّ ضيق النظر هذا يكون سببًا لصيرورة النعمة نقمة على صاحبها.

لقد عملت النصوص الشرعية على الحيلولة دون وقوع الإنسان في مثل هذه النظرة المحدودة الكاشفة عن أفق غير واع عنده، فقال القرآن مثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

(١) نفسه ١٠: ١١٢.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾[١]، وقد روي عن ابن عباس أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقال: «يا بن عباس، أما ما ظهر فالإسلام، وما سوّى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوئ عملك ولم يفضحك به. يا بن عباس، إنّ الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهنّ للمؤمن ولم تكن له: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله، وجعلت له ثلث ماله أكفّر به عنه خطاياه، والثالث: سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منها، ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم»[٢].

وثمة نصوص شرعية لا تكتفي بفتح آفاق الناس على حقيقة وجود نعم إلهية غير هذه النعم المادية الدنيوية، حتى تبيّن لهم أيضًا وجود تفاضل بين النعم، فليست كلها في الدرجة نفسها من الفضل والأهمية، وأعلاها منزلةً إنما هي النعم المعنوية. فمن هذا مثلًا قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنّ من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب»[٣]،

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ١٠٠.
(٣) نفسه ١٠: ١٠٢.

وكذلك قول الإمام الصادق عليه السلام : «ما أنعم الله عز وجل على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»[١].

## السبب الرابع: الانشغال التام بالنعم الدنيوية

لئن كان الناس الذين تحدثنا عنهم في السبب المتقدم أصحاب نظرة ضيقة تجعلهم لا يرون للنعمة مصداقًا غير المصاديق المادية الدنيوية، فإنّ هناك ناسًا آخرين حالتهم لا تقلّ خطورة عنهم، وهم الذين يعرفون أنّ ثمة نعمًا غير مادية، وقد يعرفون أنّ لها أهمية كبيرة، ومع هذا يصرفون كل جهودهم وأوقاتهم في النعم المادية وحدها، وتكون هي شغلهم الشاغل في ليلهم ونهارهم، فيصيرون غارقين فيها، مثلما ورد في تعبير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام : «سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في نعمتها، واتخذوها ربًا، فلعبت بهم ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها»[٢].

إنّ هذا الانشغال التام بالنعم المادية ليقتضي، بالضرورة،

---

(١) نفسه.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٤٠١.

أن يقلّ اهتمام المرء بالنعم الأخرى، هذا إنْ بقي لديه وعي بوجودها من أساس، فتتضاءل عنايته بالجوانب الروحية والنفسية من الحياة، وتصبح النعم المادية نقمة عليه واستدراجًا له إلى مزيد من عبادة الدنيا التي تحدث عنها الإمام علي عليه السلام في كلمته السابقة، وبذا يتحقق ابتلاؤه الحقيقي كما أشار الإمام عليه السلام أيضًا في كلمة له أخرى إذ قال: «كم مبتلى بالنعماء!»[1].

وليس يصعب على المرء إذا أجال نظرًا في الحياة من حوله أن يجد أمثلة غير نادرة لأناس يبالغون في سعيهم الحثيث وراء الكسب واجتناء الأموال والمناصب والأرباح المادية - وإن كانوا في نطاق الحلال وحده - بنحو لا يبقى لهم معه أي وقت أو طاقة أو رغبة للعناية بشؤون أهليهم وتربية أبنائهم وتطوير أنفسهم علميًا وروحيًا فضلًا على ما هو مطلوب منهم أيضًا من خدمة مجتمعاتهم واهتمام بقضاياها وأمورها، فتظل حياتهم بلا تطور حقيقي، في المستويين الشخصي والاجتماعي، مهما ازدات الأرقام في أرصدتهم المالية وارتفعت درجاتهم ومناصبهم الظاهرية!

(١) ميزان الحكمة ١٠: ١١٣

## السبب الخامس: الالتهاء عن الاستغفار والتوبة

هذا السبب هو، في الواقع، متفرع عن السبب السابق ونتيجة طبيعية له. فإذا كانت النعم المادية الدنيوية هي الشغل الشاغل للإنسان فإنّ مثل هذا الإنسان لن يجد في وجدانه داعيًا يدعوه إلى استغفار ربه والتوبة من ذنوبه، فمثل هذه الدواعي بعيدة كل البعد عن تفكيره واهتمامه؛ لذا يكون ازدياد النعم المادية عليه استدراجًا له إلى مزيد من الغفلة عن التوبة وتناسي الاستغفار. ومن هنا وجدنا الإمام عليًا عليه السلام يقول: «يا بن آدم، إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»(١).

وتحدّث الإمام الصادق عليه السلام عن الأثر المباشر للنعم المادية في وقوع صاحبها في الاستدراج والتهائه عن الاستغفار، إذ قال: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيرًا فأذنب ذنبًا أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شرًا فأذنب ذنبًا أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي»(٢).

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥ من قصار الحكم، ص ٤٧٢.
(٢) أصول الكافي ٢: ٢٤٨.

و ورد عنه عليه السلام أيضًا أنه سُئل عن الاستدراج فقال: «هو العبد يذنب الذنب فيُملى له، وتُجدد له عندها النعم، فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم»[١].

وينبغي الانتباه هنا إلى أنّ عبارات في الأحاديث الشريفة من قبيل: «وإذا أراد بعبد شرًا... لينسيه الاستغفار» لا يُقصد منها أنّ الله تعالى يريد ذلك الشر بعبده ابتداءً، بمعنى أنه من الأساس لا يريده أن يعود إليه تائبًا مستغفرًا، فالله سبحانه رحيم بعباده، ولا يريد لهم إلا كل خير ومنفعة لهم، وهو منزه عن ظلمهم وإرادة الشر لهم دون استحقاق منهم. بل المقصود هو أنّ الله تعالى جازاهم في الدنيا بأعمالهم السيئة وذنوبهم السابقة بعد أن علم من نفوسهم الخبث وأنها غير صالحة لتلقي الهداية والنور، فتابع عليهم النعم ليزدادوا توغلًا في غيّهم وانحرافهم مما يختارونه لأنفسهم بإراداتهم وليس بجبر إلهي، فيسير بهم سوءُ اختيارهم إلى حيث ينتظرهم العقاب الأكبر في الآخرة.

(١) نفسه.

### السبب السادس: ضعف تحمّل الشدائد

ذكر بعض المفسرين - في مقام تفسير الآيتين - سببًا طريفًا لتحوّل النعمة إلى نقمة، إذ قال: «إنهم لا يدركون أنّ ما أغدق عليهم ربهم من نعم إنما هو من أجل أن يتورطوا في العقاب الإلهي، ويمسي عقابهم أشد ألمًا؛ لأنّ الإنسان إذا أغلقت دونه أبواب الرحمة ثم حلّ به العذاب فقد لا يكون بتلك الدرجة موجعًا مؤلمًا، أما الذين يعيشون في أوساط مرفّهة ثم يلقى بهم في دهاليز السجون والزنزانات المرعبة فسيكون ألم ذلك شديدًا عليهم جدًا»[١].

أجل، فمن كان طوال حياته في رغد العيش متنعمًا، وبصنوف الطيبات واللذائذ مستمتعًا، فإنه لا يعي صعوبة تحمّل الشدائد، ولن تكون عنده أية قدرة على التعامل مع ألمها وحدّتها؛ لذا قال الإمام علي عليه السلام: «من كان في النعمة جهل قدر البليّة»[٢].

إنّ الإسلام يريدنا أن نكون حذرين من هذه الناحية عند

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٠: ٣٢٥.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ١٠٦.

تعاطينا مع النعم المادية المتنوعة، فهو في الوقت الذي يريد أن تظهر آثار النعمة الإلهية علينا، وهذا ما دلّت عليه نصوص شرعية كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١]، وكقول رسوله الأكرم ﷺ: «إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٢]، أقول: في الوقت نفسه يريدنا أن نتحكم بزمام الأمور، فلا ندع لنفوسنا المجال لتغرق في النعم كما تشاء، وتتوسع فيها مثلما تشتهي، فإنها غير قانعة بشيء، مهما أُعطيت استزادت، ومهما أخذت طمعت في المزيد؛ لهذا جاء في الحديث النبوي الشريف: «إياكم والتنعّم، فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[٣].

وإنّها لحقيقة لا مراء فيها ولا مرية، أنّ توغّل المرء في التنعم بالنعم الإلهية يجعل نفسه تخلد إليها وتعتادها ولا تستطيع فراقها، فتراها تجزع إنْ هي تعرضت لنقص شيء منها، فكيف بها إذا فقدتها جميعها وخسرتها كلها؟ هذا أثر من آثار «سكرات النعمة» التي ورد ذكرها في روايات متعددة،

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ١١٥.
(٣) نفسه ١٠: ١١٤.

منها مثلًا ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام : «اتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النقمة»[١].

## السبب السابع: تناسي حقوق الله وحقوق العباد

في كل نعمة ينعم بها الله (جلّ شأنه) على عبده ثمة حق له، وهو حق الشكر، والشكر ليس مجرد لقلقة لسانية ظاهرية كما مرّ بيانه في بعض الموضوعات السالفة. وإن تجاهل العبد أداء هذا الحق الإلهي، أو قصّر في أدائه، فإنّه يعرّض النعمة للزوال، ويعرّضها أيضًا لتكون نقمة عليه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»[٢].

وهناك في النعمة حقوق للعباد أيضًا، أمر الله تعالى بها بنحو الوجوب أو الندب، فإذا أهملها العبد فإنه، أيضًا يعرّض النعمة لخطر الانتقال عنه وأن تتحول إلى نقمة عليه بعد أن يفقدها، فقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنّ لله عبادًا اختصهم بالنعم، يقرّها فيهم ما بذلوها

(١) نفسه.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ١٠٨.

للناس، فإذا منعوها حوّلها منهم إلى غيرهم»[١].

ويمكن جمع الجانبين - أعني تناسي حقوق الله وتناسي حقوق العباد - تحت عنوان واحد هو «الظلم»، فكلاهما نوع من أنواعه، والظلم في النعمة موجب لزوالها، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة، فظلم فيها، إلا كان حقيقًا أن يزيلها عنه»[٢].

## السبب الأخير: استعمال النعمة في المعصية

وهذا السبب داخل تحت عنوان «الظلم» أيضًا، لكنه يستحق مزيدًا من الاهتمام والعناية؛ لذا أُفرد بوصفه سببًا مستقلًا.

إنّ النعمة الإلهية تتطلب من الإنسان - عقلًا - أن يؤدي لله عنها شكرًا، والشكر لا يمكن أن يتأتى إلا باستعمالها في طريق مرضاة رب العالمين، أما الاستعمال في طريق المعصية فهو منافٍ للشكر ومتعارض مع ما يدعو العقل السليم إليه، بل هو متضاد مع الإنصاف في التعامل مع الله تعالى الذي يغدق على

(١) نفسه ١٠: ١٠٩.
(٢) نفسه ١٠: ١١٠.

العبد نعمه صباحَ مساءَ، فلا يقابل العبد إحسانه إلا بالعصيان! جاء في الحديث القدسي: «يقول الله تبارك وتعالى: يا بن آدم، ما تنصفني، أتحبب إليك بالنعم وتتمقّت إليّ بالمعاصي، خيري عليك منزل، وشرّك إليّ صاعد...»[١].

وإذا كانت همّة الإنسان أصغر من أن تحرّكه نحو استعمال النعم الإلهية في طريق طاعته وسبيل عبادته، فلا تكوننّ بالغةً من الصغر تلك الدرجة المنحطة السافلة التي تدعوه إلى استعمال النعمة في المعصية، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أقلّ ما يلزمكم لله ألّا تستعينوا بنعمه على معاصيه»[٢].

وفي بعض الروايات الشريفة نجد ربطًا وثيقًا مباشرًا بين هذه النقطة تحديدًا (أي الحذر من استعمال النعمة الإلهية في معاصيه) وبين الظفر بحسن الخاتمة، وهو ما يبحث عنه كل مؤمن، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إن أردت أن يُختم بخير عملك حتى تُقبض وأنت في أفضل الأعمال، فعظّم الله حقه أن تبذل نعماءه في معاصيه»[٣].

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ١١١.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٠ من قصار الحكم، ص ٥٣٣.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ١١١.

# ١٣ - التعامل مع اللغو

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾(١).

هذه الآية الكريمة واحدة من آيات قرآنية عدّة جاءت متحدثةً عن إيمان جمع من أهل الكتاب بعد أن استمعوا لآيات من القرآن الكريم وهي تُتلى عليهم. وقد اختلف المفسرون في تعيينهم على أقوال متعددة، أهمها:

أ - هم النجاشي وقومه في الحبشة، آمنوا بعد أن استمعوا إلى ما تلاه عليهم جعفر بن أبي طالب من آيات قرآنية.

ب - هم وفد من القساوسة بعثهم النجاشي إلى المدينة المنورة؛ ليستمعوا إلى النبي ﷺ ويأتوه بأخباره.

(١) سورة القصص، الآية: ٥٥.

ج- هم جماعة من نصارى نجران، جاؤوا إلى النبي ﷺ واستمعوا إلى القرآن، فآمنوا.

د - هم أربعون من النصارى اجتمعوا من الشام ومن الحبشة، فأتوا النبي ﷺ وأسلموا.

هـ - هم سلمان الفارسي وجماعة من اليهود، وفدوا على الرسول ﷺ ثم آمنوا به.

ومهما كان المراد فهو لا يعنينا تعيينه، وإنما يعنينا أن نستفيد مما ذكرته الآيات من صفات لهؤلاء الذين آمنوا، ومنها ما ذكرته هذه الآية الكريمة التي هي محل كلامنا حاليًا من مواقفهم من اللغو.

«اللّغو» - في اللغة - هو ذلك الكلام الذي لا ترتجى منه أية فائدة، ففي لسان العرب: «اللّغو واللّغا: السّقط وما لا يُعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع»[١]. وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «اللغو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن رويّة وفكر، فيجري مجرى اللّغا، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور»[٢].

(١) لسان العرب، مادة «لغو».
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «لغو».

لقد حدّثتنا الآية الشريفة عن أربعة مواقف لهؤلاء المؤمنين من اللغو:

١ - الإعراض عنه، بمعنى عدم الدخول فيه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾.

٢ - تذكّر أنّ هناك جزاء، وأنه قائم على أساس العمل: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٣ - عدم الرد بالمثل، هكذا فُسّر «السلام» في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى الأمان وعدم رد الإساءة بمثلها، وقيل إنّ المراد منه هنا سلام الوداع والمفارقة.

٤- الاجتناب عن أهل اللغو لكونهم جاهلين: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ويجمل بنا أن نسير مع الآية الكريمة في مسارات نستفيدها منها:

**المسار الأول:**

تقتضي الحياة الاجتماعية بطبيعتها أن يكون ثمة تأثير وتأثّر دائمان بين أفراد أي مجتمع، فالشخص الخيّر ذو الطباع الجميلة والأخلاق الحسنة سيؤثر، بلا ريب، في الناس

القريبين منه، وكذلك الشخص الشرير ذو الصفات الرديئة سيترك آثارًا سيئة في أولئك الذين يحيطون به؛ لذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال عن صحبة الأخيار: «ليس شيء أدعى لخير وأنجى من شر من صحبة الأخيار»[١]، وقال عن صحبة الأشرار: «صحبة الأشرار تكسب الشر، كالريح إذا مرّت بالنتن حملت نتنًا»[٢].

ولمّا كان ذلك كذلك، فليس من المقبول من أي فرد في المجتمع أن يكتفي بكونه هو معافى من الأمراض الاجتماعية والسلوكيات الخاطئة التي قد يجدها عند الآخرين، دون أن يعير حالَ المجتمع شيئًا من اهتمامه، ومن غير أن يسعى إلى تغيير المنكرات التي يراها حاضرة في المجتمع وآخذةً سبيل الازدياد. إنّ مشكلة الكثيرين منّا أنهم لا يستحضرون أمامهم خطورة أنّ المفاسد الاجتماعية والانحرافات الخلقية لا تعرف لأنفسها حدًا معيّنًا تتوقف عنده، فهي إنْ ظهرت في مجتمع ما فإنها تأخذ بالانتشار والتوسع، كالنار في الهشيم، وسرعان ما تأكل الأخضر واليابس، ولات حين مندم.

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٧٨.
(٢) نفسه.

ومن هنا وجدنا في الأحاديث الشريفة تحذيرات مؤكدة وشديدة ترتبط بالعواقب الوخيمة التي سيُرزأ بها أي مجتمع لا يعتني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل الأمة كلها ستكون آنئذ عرضة لعظائم الأمور. فمن هذا ما روي عن رسول الله ﷺ من أنه قال: «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسُلّط بعضهم على بعض، ولم يكنلهم ناصر في الأرض ولا في السماء»[١].

وتفيدنا بعض الروايات الشريفة أنّ السكوت على المعاصي ومداهنة أهلها يستتبع العقاب الإلهي على الناس الذين يعدّون أنفسهم ويراهم الآخرون أخيارًا. فقد ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام أني معذّب من قومك مائة ألف: أربعين ألفًا من شرارهم، وستين ألفًا من خيارهم، فقال عليه السلام: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[٢]. وعن الإمام جعفر

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١١: ٣٩٨.
(٢) وسائل الشيعة ١١: ٤١٦.

الصادق عليه السلام قوله: «ما أقرّ قوم بالمنكر بين أظهرهم لا يغيّرونه إلا أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»[١].

إنّ المؤمن الحقيقي هو الذي يغضب لغضب الله، فلا يقنع بأن يكون هو بشخصه مجتنبًا المنكرات والمعاصي حتى يسعى كل سعيه لاقتلاع تلكم المنكرات والمعاصي من مجتمعه من جذورها، أو في أقلّ تقدير أن يحاول التصدي لها قدر إمكانه، وإلا فلن تكون حاله أحسن من حال المذنبين والعصاة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها، فلمّا انتهيا إلى المدينة فوجدا فيها رجلًا يدعو ويتضرع . . . إلى أن قال: فعاد أحدهما إلى الله فقال: يا رب، إنني انتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلانًا يدعوك ويتضرع إليك، فقال: امضِ لما أمرتك به، فإنّ ذا رجل لم يتمعّر وجهه غيظًا لي قط»[٢].

**المسار الثاني:**

قبل التفكير في صلاح حال المجتمع ونهي الآخرين عن المنكر، ينبغي للمؤمن أن يفكر في صيانة نفسه وأهله من

(١) نفسه ١١: ٤٠٨.
(٢) نفسه ١١: ٤١٤. و«التمعّر» هو التغيّر.

منكرات الآخرين ولغوهم، وهذه هي الوقاية التي أمرت بها الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[١]، والآية محل كلامنا قالت: ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، فهم يتجنبون الدخول في لغو الكلام، متذكرين وجود جزاء في يوم القيامة، وأنّ هذا الجزاء إنما يقوم على أساس العمل الصادر من الإنسان.

نعم، المسؤولية عن أنفسنا وأسرنا تأتي في مرتبة سابقة على مسؤوليتنا عن مجتمعنا في دائرته الواسعة، إذ ما ينفع الإنسانَ أن ينتفع به الآخرون إذا هو لم ينفع نفسه ولم يَقها من الوقوع في المهالك والمعاصي؟ روي أنّ رسول الله ﷺ قال في وصيته لأبي ذر: «يا أبا ذر، يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار، وإنما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم وتأديبكم؟ فيقولون: إنّا كنّا نأمركم بالخير ولا نفعله»[٢].

وتتطلب هذه المسؤولية الذاتية أن يحرص كل فرد منّا

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٢) وسائل الشيعة ١١: ٤٢٠.

على ترسيخ جذور التقوى في أعماقه، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رُزق التقى رُزق خير الدنيا والآخرة»[١]، وروي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «إنّ التقوى أفضل كنز، وأحرز حرز، وأعزّ عزّ، فيه نجاة كل هارب، ودرك كل طالب، وظفر كل غالب»[٢].

إنّ التقوى متى ما تحقق لها تأثيرها في وجدان المرء فستكون مانعة له من أن يتخذ من وقوع الآخرين في فعل المنكرات ذريعة له ليفعل هو أيضًا مثل فعلهم، كما يُلاحظ في بعض المجتمعات حين يتخذ بعض الأفراد من سلوك بعض آخر مسوّغًا له، يسوّغ به انحرافه عن بعض الأحكام الشرعية وعدم تقيّده بها، لا سيما حين يكون فاعلو المنكرات من ذوي المكانة والمنزلة في المجتمع.

المطلوب - في المنظور الإسلامي - من أي إنسان منّا أن يصبر عن المعاصي والذنوب، مهما كانت إغراءاتها قوية وجاذبيتها شديدة، وهذا أفضل أنواع الصبر، كما في حديث أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الصبر إما صبر على المصيبة، أو

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٦١٩.
(٢) نفسه.

على الطاعة، أو عن المعصية، وهذا القسم الثالث أعلى درجة من القسمين الأولين»[١]، لا أن يستجيب لوساوس شيطانه وتسويلات نفسه الأمارة بالسوء فيختار طريق المعصية بحجّة أنّ هناك أناسًا أفضل منه قد ساروا في الطريق نفسه.

**المسار الثالث:**

صون الذات الذي تقدم الكلام عليه في المسار السابق ليس مقصورًا على صونها عن الحرام فحسب، بل على الإنسان أن يصونها عن كل فعل أو قول لا تكون فيه منفعة حتى إذا لم يكن محرمًا شرعًا، فقد تقدم قريبًا نقلُ ما ذكرته المعاجم اللغوية من أنّ اللغو هو «ما لا يُعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع»، وواضحٌ أنّ عدم الانتفاع من شيء ما مفهومٌ أعم من أن يكون ذلك الشيء محرمًا أو لا يكون، بل يذهب بعض المفسرين إلى أنّ مفهوم اللغو في المنظور الإسلامي مختص بالمباحات التي لا تنفع، «فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضًا إلى الآخرة

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٦٧.

كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذي اللذين يتفرع عليهما التقوّي على طاعة الله وعبادته، فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو، وبنظر أدق هو ما عدا الواجبات والمستحبات من الأفعال»[١].

إنّ الإسلام حين يمتدح المعرضين عن اللغو يريد منّا ألّا نشغل أنفسنا بما لا يعنينا ولا يفيدنا الانشغال به، فعن سيد الخلق محمد ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٢]، وقال أيضًا: «ترك ما لا يعني زينة الورع»[٣].

وتفيدنا النصوص الشرعية الواردة في المقام أنّ شغل النفس بغير ما يعنينا سيؤدي، لا محالة، إلى:

أ - تضييع ما يعنينا شأنه، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «من شغل نفسه بما لا يجب، ضيّع من أمره ما يجب»[٤]، وأيضًا قوله عليه السلام: «من اشتغل بغير المهم ضيّع الأهمّ»[٥].

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٥: ٦.
(٢) ميزان الحكمة ٨: ٥١٣.
(٣) نفسه.
(٤) ميزان الحكمة ٨: ٥١٤.
(٥) نفسه.

ب - التعرّض إلى إذلال النفس، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظم الناس قدرًا من ترك ما لا يعنيه» [١]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إياك والدخول فيما لا يعنيك فتذلّ»[٢].

ج - جلب الشرّ، فقد جاء في حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ربّ لغو يجلب شرًا»[٣]، وكلمة «الشر» هنا وردت مطلقة، فهي تتناول كل شر يمكننا أو لا يمكننا أن نتصوره!

د - الابتلاء بمعاشرة السفهاء، فهؤلاء هم الذين يعشقون الفضول من الكلام والفعل، فلا محالة سينجذبون لمن كان مثلهم يميل إلى اللغو وسفاسف الأعمال والأقوال. ورد عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «دعوا الفضول يجانبكم السفهاء»[٤]، والحديث يفيد - بمفهومه - أنكم إن لم تدعوا الفضول فسيقاربكم السفهاء ويدنون منكم.

هـ - إزعاج النفس وسلب الطمأنينة والراحة الوجدانية عنها، وهذه نتيجة طبيعية لشغلها بشؤون وقضايا لا تعنيها ولا

(١) نفسه ٨: ٥١٣.
(٢) نفسه.
(٣) ميزان الحكمة ٨: ٥١٤.
(٤) نفسه.

ترتبط بها من قريب أو بعيد، فعن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «راحة النفس ترك ما لا يعني»[١].

و - تعريض الذات للعقاب الإلهي الأخروي، وهذه أيضًا عاقبة غير مستبعدة في حق من قد يقوده حبه للّغو والفضول إلى الخوض في أمور تستجلب السخط الإلهي وتؤدي به إلى الخسران المبين، ففي الحديث النبوي الشريف: «لا تهيجوا وهج النار على وجوهكم بالخوض فيما لا يعنيكم»[٢].

وبعد كل هذا، يكاد العجب لا ينقضي من أولئك الذين يصرفون كثيرًا - مع كون القليل أيضًا ممقوتًا - من أوقاتهم في الحديث عن أحوال الآخرين وشؤونهم الخاصة، غير مبالين بما قد تقودهم هذه الأحاديث إليه من هتك ستور البيوت، وكشف أسرارها، والانتقاص من قدر بعض المؤمنين والمؤمنات، والإساءة إليهم، ودعك مما سينعكس على المجتمع كله من نشر للشائعات والفتن والأكاذيب.

**المسار الأخير:**

إذا كان الموقف الإسلامي إزاء اللغو - وهو في دائرة

(١) نفسه ٨: ٥١٣.
(٢) ميزان الحكمة ٨: ٥١٤.

المباحات كما تقدم نقله قريبًا عن صاحب الميزان - يتطلب صون النفس والأهل والمجتمع كله عنه، أي يتطلب الإعراض الكامل عنه، فإنّ مقتضى الأولوية العقلية أن يكون الإعراض عن الأقوال والأفعال المحرمة أشد وأوثق. وإذا وجد المسلم في مجتمعه تصرفات وممارسات محرمة تقام تحت أية عناوين اجتماعية مباحة، كالزيجات والأعياد ولقاءات الأقارب أو زملاء العمل مثلًا، فإنّ عليه ألّا يجامل أصحابها ويسكت على ممارساتهم المحرمة - فضلًا على كونه مطالبًا بعدم الانخراط والدخول فيها - حرصًا على مشاعرهم وتقديرًا لهم، فقد جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة»[1].

إنّ المسلم مطالب بأن يُظهر خارجًا كرهه للمنكرات وعدم ارتضائه لها، فهذا الإظهار هو الذي تتحقق به المرتبة الأولى الأدنى من مراتب النهي عن المنكر، مثلما ذكر الفقهاء، وهي مرتبة الإنكار القلبي، فليس المراد من هذه المرتبة إذًا ما يتوهمه الكثيرون من مجرد الاكتفاء بالكراهة الباطنية في داخل الإنسان من دون إظهارها خارجًا، بل لا بد

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤١٣.

من الإظهار، وذلك بأن «يأتي المكلف بعمل يظهر به انزجاره القلبي وتذمره من ترك المعروف أو فعل المنكر، كإظهار الانزعاج من الفاعل أو الإعراض والصد عنه أو ترك الكلام معه أو نحو ذلك من فعل أو ترك يدلّ على كراهة ما وقع منه»[١].

يستدعي الاهتمام بالدين والحرص على المجتمع من الإنسان المسلم أن يبذل وسعه في وقاية مجتمعه من المنكرات، فإنْ تحقق بعضها فهو مطالب بأن يعمل على إزالتها وتنظيف المجتمع منها، فإن لم يفلح فلا أقلّ من أن يتجنب مرتكبيها ويُظهر لهم كرهه لما يفعلون. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل علينا به الأذى أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولًا بليغًا؟

فقيل له: جعلت فداك، إذًا لا يقبلون منّا.

قال: اهجروهم واجتنبوا مجالسهم»[٢].

---

(١) منهاج الصالحين، سماحة السيد علي السيستاني، ١: ٣٨٨، المسألة ١٢٧٢.
(٢) وسائل الشيعة ١١: ٤١٥.

# ١٤ - استماع القول واتّباع أحسنه

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[١].

تحدثت روايات أسباب النزول عن عدة أسباب تتعلق بهاتين الآيتين المباركتين، فمن هذه الروايات ما يدل على أنّ السبب مرتبط بمدح أناس كانوا موحّدين منذ زمن الجاهلية، فقد روي «أنّ هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيد بن عمرو، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي...»[٢]، ومن الروايات ما يربط

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ٩: ٧٠٦٢.

الموضوع بقولة أو موقف لفرد من المسلمين، فمن هذا ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري: «لمّا نزلت ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أتى رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي سبعة مماليك، وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكًا، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾»(١).

وأيًا ما كان سبب النزول الواقعي، فإنّ ألفاظ الآيتين مطلقة، تبشّر بعض عباد الله ذاكرةً لهم صفات جعلتهم يستحقون عليها البشارة، فهي قابلة للانطباق على أي مورد - مهما كان زمانه ومكانه - توافرت فيه هاتيك الصفات.

ولنلحظْ في البدء أنّ الآيتين تعليان من شأن أولئك الناس الذين تتحدثان عنهم إعلاءً عظيمًا، وهذا ظاهر في أسلوبها التعبيري عنهم: فهما تبتدئان الكلام بالبشارة، ويا لها من بشارة! بشارة من رب العزة (جل شأنه) على لسان أعظم رسله ﷺ، والمبشّر به محذوف، فلا تحدد الآيتان ما الذي يبشرهم الله تعالى به؟ وعدم التحديد يفتح المجال أمام كل متلقّ ليحلّق بذهنه في عالم الخيال إلى حيث يريد، فيتخيل من

(١) لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ص ٢٧١.

النعيم الإلهي ما بدا له وطاب. ثم استعملت الآيتان كلمة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ واضعتين الاسم الظاهر في موضع الضمير، فقد كان مقتضى ظاهر الحال هنا أن يُستعمل الضمير في الحديث عنهم فيقال: «فبشّرهم»، نظرًا لوجود كلام سابق عنهم، لكنّ الآيتين أرادتا هذا الاسم الظاهر دون سواه لخصوصية فيه، فهو يجأر بأنّ ظهور حقيقة العبودية في حياتهم وسلوكهم هو الذي جعلهم يحظون بهذه البشارة الإلهية العظيمة، فبالعبودية الحقة يرقى العبد في مراقي الكمال الإنساني لينال القرب الإلهي والفوز عند ربه الكريم. وقد جاء الاسم الظاهر مضافًا إلى ياء المتكلم العائدة عليه سبحانه وتعالى، فالأصل هو «عبادي»، حُذفت منه الياء وبقيت الكسرة دالّة عليها، ومن الواضح أنّ هذه الإضافة هي لتشريف المضاف، مثل تلك التي في: بيت الله وشهر الله...

إنّ هؤلاء العباد المبشرين يتصفون بكونهم ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾، فهم ليسوا أناسًا متزمتين مغلقين يخافون الأفكار الأخرى ويحرصون على الهروب من مواجهتها، بل هم يفتحون عقولهم وأفهامهم لها، فيستمعون الأقوال التي تُلقى على مسامعهم، ويختارون بعد ذلك أحسنها ليتّبعوه.

وكلمة «القول» هنا جاءت مطلقة، فهي تتناول كل قول، ولا دليل على التقييد الذي مال إليه بعض المفسرين حين ذهبوا إلى أنّ المراد هو أنهم يستمعون القرآن وغيره ثم يتّبعون القرآن، أو أنّ المراد هو كونهم يستمعون كل أوامر الله ثم يتّبعون أحسنها، كالقصاص والعفو فيتّبعون العفو، وكإبداء الصدقات وإخفائها ثم يتّبعون الإخفاء، وهكذا.

وتُختتم الآية الأخيرة بأسلوب آخر من الأساليب التي تفيد الإعلاء من شأن المتحدّث عنهم، وهو أسلوب الإشارة مرتين باستعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد، فلم تقل الآية: «هؤلاء»، بل قالت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، واستعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد فيه دلالة على رفعة الدرجة وعلوّ الشأن وعظمة المنزلة، بتنزيل رفعة الدرجة منزلة البُعد المكاني، مثلما في قوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

نعم، أولئك هم المهتدون بهداية ربهم؛ لأنّ المهتدي الحقيقي هو الذي عرف طريق نجاته فسار فيه، بهدي من روح

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

العبودية فيه، فوصل إلى الفوز والكرامة والبشارة من ربه (جلّت قدرته). وأولئك هم أصحاب العقول؛ لأنّ العقل لا يراد به الذكاء والفطنة، بل العقل هو «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»، كما أجاب الإمام الصادق عليه السلام من سأله عنه[1].

هذا، وفي الآيتين مجموعة من الدلالات التي من الحريّ بنا أن نتوقف عندها:

**الدلالة الأولى:**

يعطي الإسلام لأتباعه حرية الاطّلاع على الأقوال المختلفة والاستماع إليها، لا بل هو يمتدح الذين يفعلون ذلك ويبشّرهم ويصفهم بالمهتدين وأصحاب العقول. فمن المجانبة للموضوعية والإنصاف أن يوصم الدين بأنه يدعو إلى التحجر الفكري والانغلاق ويحارب الانفتاح على الأفكار والثقافات الأخرى. ولئن اعتمد أصحاب هذه الأراجيف على بعض الأمثلة من التشريعات الإسلامية في تأييد ما يذهبون إليه، فإنّ هذه الأمثلة كلها لا تصمد أمام البحث الموضوعي والنقاش

(١) ميزان الحكمة ٦: ٤١٩.

العلمي الهادئ القائم على الأدلة والبراهين مما لا مجال للخوض فيه ههنا.

نعم، من المهم جدًا أن نلحظ أنّ هذه الحرية قد قيّدتها الآيتان المباركتان بقيدين اثنين:

أ - وجود الحُسْن، فلم تفتح الآيتان الباب أمام الانفتاح على الأقوال التي نجزم بكونها بأجمعها ضلالًا وانحرافًا، بل مجالهما هو الاستماع إلى الأقوال عندما نحتمل وجود الحُسن فيها، ثم علينا أن نبحث فيما بينها عن أحسنها.

ب - وجود القدرة على تمييز الأحسن، فهؤلاء القادرون على التمييز هم وحدهم المستحقون للبشارة الإلهية. أما من كان لا يمتلك مثل هذه القدرة، قصورًا أو تقصيرًا، فليس يدخل ضمن دائرة هذه البشارة.

وهنا لا بد من همسة تذكير في آذان الكثيرين - لا سيما من الشبان والشابات - ممن لا يقيمون أي وزن لهذين القيدين، ولا ينتبهون لهما من الأساس، فمن العجيب أنك تراهم ينفتحون على كل الأقوال والآراء والتيارات الفكرية الآتية من هنا وهناك، بحجة كونهم متحضرين وغير منغلقين ويعترفون بالأفكار الأخرى ويحبون الاطلاع عليها، من دون

أن يسبق ذلك كله حرصٌ مماثل إن لم يكن أقوى على تكوين قاعدة فكرية راسخة يستطيعون أن يقفوا عليها بثبات واستقرار، فلا تزلزلهم الأفكار الأخرى ولا تستطيع حرفهم عن الهدى والحق. إنّ على هؤلاء الأعزاء أن يعوا جيدًا أنهم مسؤولون - قبل كل شيء - عن دينهم وعن الحق الذي هداهم الله إليه، فلا تذهبنّ بهم الأهواء الفكرية والتسويلات يمينًا وشمالًا، وعليهم أن يتذكروا ما ورد في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «دع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تُكلّف، وأمسك عن طريق إذا خفتَ ضلالته، فإنّ الكف عن حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال»[1].

وأعجب من هذا أنك ترى آباءً وأمهاتٍ يتباهون أمام الناس بأنهم يتيحون لأبنائهم وبناتهم كل الإمكانات والسبل للاطلاع على الأفكار والثقافات الأخرى، فلا يتدخلون في إرشادهم إلى ما يقرؤونه ويتابعونه من المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، بل يأخذونهم في زيارات ورحلات إلى الدول والثقافات الأخرى، من دون أن يفكروا

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٣٩٢.

في لحظة في مدى قابلية هؤلاء الأبناء والبنات لتمييز ما هو أحسن وأصلح!

إنّ على الآباء والأمهات أن يفكروا ويعملوا - في مرحلة أسبق - على تغذية ذراريهم بالثقافة الإسلامية الأصيلة حتى تشتد أعوادهم وترسخ أقدامهم فلا تنزلق في مزالق الفكر والثقافة. وهذا، في الواقع، مندرج ضمن التأديب الذي هو من حقوق الأولاد، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه»[١]، وقال أيضًا: «لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بصاع»[٢].

وفي حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليه المرجئة»[٣]، وجاء في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «وإنما قلب الحدث كالأرض

(١) كنز العمال ٢: ١٧٢٧، رقم الحديث ٤٥٤٣٦.
(٢) نفسه، الحديث ٤٥٤٣٧.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ٧٢١. و«المرجئة» فرقة من الفرق الكلامية، ظهرت في آخر عهد عثمان بن عفان، وكانت تنادي بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة. راجع ما كتبه عنها الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» ١: ١١٩- ١٢٤.

الخالية، ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك»[١].

**الدلالة الثانية:**

تدل الآيتان الكريمتان على أنّ غاية هؤلاء المبشرين من الاستماع إلى الأقوال المتنوعة إنما هي غاية العمل والاتّباع، وهذا العمل يأتي عقيب الاستماع مباشرة وبلا فاصل زمني، بقرينة الفاء المفيدة للترتيب والتعقيب: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ﴾.

إنّ العلم وإنْ كان نورًا في حد نفسه، لا يؤتي أُكُلَه ولا يحقق أثره في حياة الفرد والجماعة إلا بالعمل به؛ لذا ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «العلم الذي لا يُعمل به كالكنز الذي لا يُنفق منه، أتعب صاحبه نفسه في جمعه، ولم يصل إلى نفعه»[٢]، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «العلم رشد لمن عمل به»[٣].

بل أشارت النصوص الشرعية إلى أنّ العلم غير المقترن

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٣٩٣.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٥٠٧.
(٣) نفسه ٦: ٥٠٦.

بالعمل - وهو المتخذ وسيلة للتباهي الاجتماعي والحصول على المناصب الدنيوية - إنما هو وبالٌ على صاحبه وحجة لله سبحانه عليه، ففي حديث رسول الله ﷺ: «كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به»[١]، وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «علم بلا عمل حجة الله على العبد»[٢]؛ لذا ورد أنّ النبي ﷺ كان يستعيذ بالله تعالى من علم كهذا: «نعوذ بالله من علم لا ينفع»[٣].

**الدلالة الثالثة:**

هؤلاء الممدوحون المبشّرون لا يكتفون بوجود الحُسن فيما يتّبعونه، بل يبحثون عن الأحسن، وهذا «معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق وإرادة الرشد وإصابة الواقع، فكلما دار الأمر بين الحق والباطل والرشد والغي اتّبعوا الحق والرشد وتركوا الباطل والغيّ، وكلما دار الأمر بين الحق والأحق والرشد وما هو أكثر رشدًا أخذوا بالأحق الأرشد»[٤].

---

(١) نفسه ٦: ٥٠٨.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٦: ٥٠٧.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٧: ٢٥٠.

إنّ الإنسان الباحث عن الحق، الذي لا هدف له يرجوه إلا إصابة الحق، لا يقنع من هدفه بالقليل، ولا يرضى من غايته بأدناها، نعم ولا يتوقف عن سيره حتى يصل إلى قُنّة الجبل وينال أعلى الدرجات، مثلما طلب الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في دعائه: «ووفّقني إذا اشتكلت عليّ الأمور لأهداها، وإذا تشابهت الأعمال لأزكاها، وإذا تناقضت الملل لأرضاها»(١).

وما أعظمها من همّة! وأكرِمْ بها من إرادة! هاتان اللتان تولّدهما في داخل الإنسان هذه النظرة الإيجابية الهادفة التي لا ترضى ولا تقنع منه إلا بالوصول إلى الأحسن من الأقوال والأفكار والآراء. ولعمري إنّ هذا لديدن أهل الدنيا في بحثهم عن الأموال والمناصب، فلا يرضون إلا بالأكثر والأعلى، لكن هل يحرص كثيرون على الأكثر والأعلى أيضًا حينما يتعلق الموضوع بالحق والخير والصلاح؟

ولمّا كان أولئك المذكورون في الآيتين الشريفتين مطبوعين على طلب الحق، فإنّ ذلك يستلزم توافر صفات فيهم

(١) من دعاء مكارم الأخلاق، وهو من أدعية الصحيفة السجادية.

تعكس هذا الطبع وتدل عليه، وقد أشارت بعض الروايات إلى بعض تلكم الصفات، فمن ذلك مثلًا ما ورد عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾؟ قال: هو الرجل يسمع الحديث، فيحدّث به كما سمعه، لا يزيد فيه ولا ينقص منه»[1].

**الدلالة الرابعة:**

تصرّح الآيتان الكريمتان بأنّ العباد المبشّرين يبحثون في الأقوال المتنوعة التي يستمعون إليها عن أحسنها ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، فميزان الاتّباع عندهم منحصر في قيمة القول نفسه، دونما نظر إلى قائله وصاحبه، إذ الحق حق، والباطل باطل، أيًا كان القائل بهما.

نقرأ في نهج البلاغة: «وقيل: إنّ الحارث بن حوط أتاه فقال: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟

فقال عليه السلام: يا حارث، إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحِرتَ! إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف

(١) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، ٦: ٥٣٢.

الباطل فتعرف من أتاه»[١]، وفي نقل آخر: «إنك لملبوس عليك، إنّ الحق والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله»[٢].

حينما يجعل المرء كلًا من الحق والباطل نصب عينيه، فإنه سيصبّ كل وُسعه وإمكاناته في الوصول إلى الأول واجتناب الأخير، ولن يشغل نفسه بالناس وتصنيفهم إلى محقين ومبطلين، فليس هذا من وُكْده. ومثل هذا الإنسان سيظل متمسكًا بالحق عندما يصل إليه، مهما انحرف عنه المنحرفون وضلّ الضالّون، وهذا بخلاف من يربط حاضره ومستقبله بالناس، فيتّبع من يراه محقًا منهم، فإنه يضع إيمانه على شفا جرف من الهلاك ويعرّضه للمخاطر فيما إذا انحرف ذاك المحق يومًا أو تخلّف عن سيره في طريق الحق. وعلى هذه الحقيقة الخطيرة نبّه الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «من دخل في هذا الدين بالرجال أخرجه منه الرجال كم أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول»[٣].

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٦٢ من قصار الحكم، ص ٥٢١.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٣ - ٤٧٤.
(٣) ميزان الحكمة ٣: ٣٩١.

**الدلالة الأخيرة:**

في الآيتين الكريمتين تناولٌ لموضوع الهداية الإلهية بنحوٍ بالغ الدقة والعمق، فهما من جهة تصرّحان بأنّ الهداية إنما هي من الله (جلّ شأنه) وحده: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهذا المعنى وردت في تأكيده روايات نبوية شريفة، كقوله ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله جلّ جلاله: عبادي، كلكم ضالّ إلا من هديته، وكلكم فقير إلا من أغنيته، وكلكم مذنب إلا من عصمته»(١).

بيد أنّ الآيتين تدلان أيضًا من جهة أخرى على أنّ الهداية الإلهية تكون لمن كان من عباده باحثًا عن الحق وساعيًا نحو تحصيله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾. فكون الهداية آتية من جانب رب العالمين ليس معناه عدم وجود أية مسؤولية ملقاة على الإنسان نفسه في هذا المجال، بل إنّ عليه أن يوفّر في نفسه محلًا مناسبًا ومجالًا ملائمًا لتلقّي الهداية الربانية، وهذا المعنى دلّت عليه آيات قرآنية عدة، مثل:

---

(١) نفسه ١٠: ٣٢٧.

- ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[١].
- ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٢].
- ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[٣].
- ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾[٤].
- ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[٥].

ودلّت عليه أيضًا روايات متعددة، مثل:

- الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى أو يردّه بها عن ردى»[٦].

- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أيها الناس، إنه من استنصح لله وُفّق، ومن اتخذ قوله دليلًا هُدي للّتي هي أقوم»[٧].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٧.
(٤) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٦) كنز العمال ١: ١٠٢٦، الحديث ٢٨٨٩٢.
(٧) ميزان الحكمة ١٠: ٣٣٣.

- الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «من اعتصم بالله عز وجل هُدي»[١].

- الإمام محمد الجواد عليه السلام : «إنّ الله تبارك وتعالى الحليم العليم، إنما غضبه على من لم يقبل منه رضاه، وإنما يمنع من لم يقبل منه عطاه، وإنما يضلّ من لم يقبل منه هداه»[٢].

(١) نفسه ١٠: ٣٢٨.
(٢) نفسه ١٠: ٣٣٢.

# ١٥ - الإنسان الكنود

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[١].

في الآيات الثلاث حديث عن هذا المخلوق المميّز ذي الشأن الخاص، المعروف باسم «الإنسان»، فتعرض كل آية منها لصفة من صفاته. وهل المراد هنا هو مطلق الإنسان، فتنطبق الكلمة حينئذ على كل إنسان؟ ذهب بعض المفسرين إلى هذا، فيكون في الآيات «إخبار عما في طبع الإنسان من اتّباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه»[٢]، وثمة مفسرون لم يرتضوا هذا

(١) سورة العاديات، الآيات: ٦ - ٨.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٤٦.

الرأي، فاختاروا أنّ «كلمة (الإنسان) في مثل هذه الاستعمالات القرآنية تعني الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحة والطغيان، وقيل: إنه الإنسان الكافر»[١].

تصف الآية الأولى الإنسان بأنه «كنود»، وهذه الكلمة في أصل وضعها اللغوي تستعمل للدلالة على «الأرض لا تنبت شيئًا»[٢]، وقد ذكر المفسرون في بيان المراد منها هنا معاني كثيرة أوصلها بعضهم إلى بضعة عشر معنى[٣]، ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «أتدرون ما الكنود؟ قيل: الله ورسوله أعلم، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده»[٤]. بيد أنّ هذه المعاني المتعددة هي فروع عن المعنى الجامع المراد وهو الكفران بالنعمة، فالإنسان كنود أي «كفور لنعمته كقولهم أرض كنود إذا لم تنبت شيئًا»[٥].

وتواصل الآية الثانية الحديث عن الإنسان - فالضمير في

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٠: ٣٠٩.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة "كند".
(٣) راجع مثلًا ما نقله الفخر الرازي في تفسيره الكبير في شرح الآية، ١٦: ٥٩٢.
(٤) تفسير نور الثقلين ٨: ٢٩٦.
(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة "كند".

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ راجع إليه، وليس راجعًا إلى الله تعالى كما ذكر بعض المفسرين، والسياق يشهد بأنّ الضمائر في الآيات السابقة واللاحقة راجعة إلى الإنسان - فتصفه بأنه ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، واختلف المفسرون في تفسير المراد من «شهيد» ههنا، فاختار بعضهم أنه بمعنى الشهادة، أي أنّ «الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل»(١)، واختار آخرون كون الشهيد هنا من العلم والبصر، «فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أن يخفي سريرته فلا يستطيع أن يخفيها عن الله وعن ضميره، اعترف بهذه الحقيقة أم لم يعترف»(٢).

وفي الآية الأخيرة وصف الإنسان بأنه ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، وقد ذكر الفخر الرازي في التفسير وجوهًا:

١ - إنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، فالشديد هو بمعنى البخيل.

٢ - أن يكون المراد من الشديد: القوي، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف.

---

(١) الميزان ٢٠: ٣٤٦.
(٢) الأمثل ٢٠: ٣١٠.

٣ - أراد أنه لحب الخيرات غير هنيء منبسط، ولكنه شديد منقبض.

٤ - قال الفراء: يجوز أن يكون المعنى: وإنه لحب الخير لشديد الحب، يعني أنه المال، ويحب كونه محبًا له.

٥ - قال قطرب: أي أنه شديد حب الخير[١].

السؤال الذي نود أن نتوقف عنده ههنا يتعلق بالارتباط الدلالي بين مفاد الآيات الثلاث وكيفية الانسجام من جهة المعنى فيما بينها، فإذا كان الإنسان شديد الحب للخير فلماذا هو كفور بنعمة ربه؟ أليس حبه للخير ينبغي أن يقوده إلى حب من وهبه هذا الخير، ومن ثَمّ إلى أداء حق الشكر له؟ إنّ الإنسان المحب للخير ينبغي أن يجعله حبه هذا يسعى إلى المحافظة على الخير والاستزادة منه، ولن يتأتى له هذا إلا بإرضاء المنعم، وشكره على نعمه. أما اللجوء إلى كفران النعمة فهذا قد لا يبدو منسجمًا مع ما يدعو إليه العقل والمنطق، فلماذا يوجد إذًا؟

يمكن أن يجاب عن السؤال بإجابات متعددة، مستفادة بأجمعها من الألفاظ المستعملة في الآية الأخيرة:

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ١٦: ٥٩٤.

١ - ﴿لِحُبِّ﴾:

الحب هو ذلك التعلق القلبي الشديد الذي يجعل المحب يهيم في المحبوب وينسى كل من سواه وما سواه، ولهذه الحقيقة أشار رسول الله ﷺ إذ قال: «حبك للشيء يعمي ويصمّ»(١).

وحين يكون المحبوب هو الدنيا، تكون للحب سطوة خاصة هائلة على المحب، وصفها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «حب الدنيا يفسد العقل، ويصمّ القلب عن سماع الحكمة، ويوجب أليم العقاب»(٢)، وبقوله: «من غلبت الدنيا عليه عمي عمّا بين يديه»(٣).

وقد تزداد سطوة حب الدنيا على قلب هذا الإنسان المحب حتى تنسيه المنعم الذي أنعم عليه بكل النعم التي يرفل فيها ويتنعّم؛ لذا ورد في الحديث أنّ الله تعالى أوحى لنبيّه داود عليه السلام: «يا داود، احذر القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا، فإنّ عقولها محجوبة عني»(٤). وإذا نسي الإنسان

(١) ميزان الحكمة ٢: ٢٠٨.
(٢) نفسه ٣: ٢٩٦.
(٣) نفسه.
(٤) ميزان الحكمة ٣: ٢٩٦.

المنعمَ، فمن البدهي عندئذ ألّا يؤدي له الشكر، فيقع في كفران النعمة.

يتضح مما تقدم السبب في حرص الإسلام الشديد على أن يستذكر الإنسان منّا المنعم - جلّ شأنه - عند تذكّره أية نعمة أو حين تجدّدها، فهذا نهج لاحب لربطه بربه المنعم عليه، ولجعله، بعد ذلك، يسير في طريق أداء حق الشكر له.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد نُقل أنه كان في سفر يسير على ناقة له، إذ نزل فسجد خمس سجدات، فلمّا أن ركب قالوا: يا رسول الله، إنّا رأيناك صنعت شيئًا لم تصنعه! فقال: «نعم، استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشّرني ببشارات من الله عز وجل، فسجدت لله شكرًا، لكل بشرى سجدة»[1]. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنها من عند الله إلا غفر له قبل أن يحمده»[2].

٢ - ﴿ٱلْخَيْرِ﴾:

اتضح من الوجوه التي تقدم قريبًا نقلها عن الفخر الرازي

(١) نفسه ٥: ١٤٩.
(٢) نفسه ٥: ١٤٧.

في تفسير الآية أنّ المفسرين اختلفوا في تفسير المراد من «الخير» على رأيين:

**الرأي الأول**: المراد هو خصوص المال؛ وذلك لأنّ هناك نعمًا كثيرة ليست مذمومة كالعلم والتقوى والسعادة إلخ، ولأنّ هذا الاستعمال وارد في آيات أخرى من القرآن الكريم من قبيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١]، فالكلمة ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ يراد بها هنا المال قطعًا، وكذلك المراد من الكلمة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[٢].

بناءً على هذا، تكون الآية الشريفة بصدد بيان أنّ خطأ هذا الإنسان كامن في كونه ضيّق الأفق، لا يرى من كل النعم الإلهية التي لا تحصى سوى نعمة المال فقط، ومثله لا ريب في كونه جاحدًا لسائر النعم، وهو الذي عناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «من لم يعلم فضل نعم الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قصر علمه ودنا عذابه»[٣].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة المعارج: ٢١.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ١١٢.

**الرأي الآخر**: المراد هو مطلق الخير، فيكون المعنى أنّ الإنسان يحب هذه النعم الإلهية التي هي خير في حد أنفسها، ولكنه في أثناء الطريق ينحرف بهذه النعم عن جادة الصواب، فيتخذها وسيلة لاتّباع الأهواء. وهذا هو ما اختاره العلامة الطباطبائي (قدس سره) فقال: «ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه، ويكون المراد أنّ حب الخير فطري للإنسان، ثم إنه يرى عرض الدنيا وزينتها خيرًا فتنجذب إليه نفسه، وينسيه ذلك ربه أن يشكره»[١].

الإنسان، إذًا، يريد بفطرته السليمة التي فطره الله عليها أن يكون سائرًا في طريق الخير، لكنّ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء يجعلانه ينحرف. ورد في دعاء للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: «فلولا أنّ الشيطان يختدعهم عن طاعتك ما عصاك عاصٍ، ولولا أنه صوّر لهم الباطل في مثال الحق ما ضلّ عن طريقك ضالّ»[٢].

٣ - ﴿لَشَدِيدٌ﴾:

فسّر بعض المفسرين الشدّة هنا بالبخل، «قال أبو

(١) الميزان ٢٠: ٣٤٧.
(٢) الدعاء ٣٧ من أدعية الصحيفة السجادية.

إسحاق: إنه من أجل حب المال لبخيل، والمتشدد: البخيل كالشديد، قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقول أبي ذؤيب:

حدرناه بالأثواب في قعر هوّة

شديد، على ما ضُمّ في اللحد، جولُها

أراد شحيح على ذلك»[1].

لكن، كيف يجعل البخلُ الإنسانَ كفورًا بنعم ربه؟ هذا ما يمكن تقريبه من وجهين:

**الوجه الأول**: البخل ناتج، في الأساس، من تضخم كبير للإحساس بالمالكية عند الإنسان، فيطغى عليه هذا الإحساس إلى درجة ينسى معها أنّ المالك الحقيقي إنما هو الله (جلّت عظمته)، وأنّ الإنسان مطالب بأنْ ينفق ما في حوزته من أموال حيث أمره المالك الحقيقي، من دون أن يجعل يده مغلولة إلى

(١) لسان العرب، مادة "شدد".

عنقه. من هنا وجدنا الآيات القرآنية تكرر التذكير بكون الملك كله لله في الواقع:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[١].
- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].
- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[٣].
- ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٤].
- ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[٥].

وغنيّ عن البيان أنّ الإنسان سينسى شكر الله تعالى إنْ هو نسي مالكيته المطلقة، فبذا يرتبط البخل بالكفران. وفي المقابل، يسير المرء بسلاسة وسهولة في طريق شكر المنعم إذا ما استحضر في ذهنه مالكيته المطلقة وعلم بها، بل إنّ بعض المرويات تدل على أنّ علمه هذا هو الشكر نفسه، فقد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٧.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ١٠.

روي أنّ النبي موسى عليه السلام قال في مناجاته: «إلهي خلقت آدم بيدك (أي بقدرتك)، وأسكنته جنتك، وزوّجته حوّاء أمتك، فكيف شكرك؟» فقال: «علم أنّ ذلك مني، فكانت معرفته شكرًا»[١].

**الوجه الآخر**: البخل هو، في حقيقته، نوع من أنواع سوء الظن بالله سبحانه؛ ذلك أنّ الإنسان إنما يبخل فيما إذا غلب على ظنه أن ربه لن يُخلف عليه ويعوضه عما ينفقه من مال، فمن الأفضل له - والحال هذه - ألّا ينفق، ويدّخر ماله لقادم الأيام. وقد نصّ أمير المؤمنين علي عليه السلام على هذه الحقيقة في قوله: «البخل بالموجود من سوء ظن بالمعبود»[٢].

وإذا أساء المرء الظن بربه فمن الطبعي ألّا يؤدي حق شكره، فبذا يغدو سادرًا في ظلمات كفران النعمة، غافلًا عن العواقب الخطيرة التي ستترتب على سوء ظنه هذا، ومعرضًا عن الفوائد العظيمة لحسن الظن بالله، مثلما أشارت نصوص شرعية كثيرة، منها:

---

(١) جامع السعادات، العلامة النراقي، ٣: ٢٣٤.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٣٧٥.

- قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[١].

- وقوله سبحانه: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[٢].

- وقول رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله»[٣].

- وحديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من حسن ظنه بالله فاز بالجنة، ومن حسن ظنه بالدنيا تمكنت منه المحنة»[٤].

- وكلمة الإمام علي الرضا عليه السلام: «أحسن بالله الظن، فإنّ الله عز وجل يقول: أنا عند حسن ظن عبدي المؤمن بي، إن خيرٌ فخيرٌ، وإن شرّ فشرّ»[٥].

(١) سورة فصّلت، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٦.
(٣) ميزان الحكمة ٥: ٦٣١.
(٤) نفسه ٥: ٦٣٠.
(٥) نفسه.

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٥ |
| ١ - الله والتغيير | ١١ |
| ٢ - الجهل البشري | ٢١ |
| ٣ - اتّباع الهادي للحقّ | ٣١ |
| ٤ - الجانب العميق من أعمالنا | ٤١ |
| ٥ - خلْق الموت والحياة للاختبار | ٥٠ |
| ٦ - الشكر والزيادة | ٦٧ |
| ٧ - الفتنة بالناس | ٨٤ |
| ٨ - الرغبة في الفجور | ٩٩ |
| ٩ - التربية ضد الفساد الاقتصادي | ١١٠ |

١٠ - التكذيب والأمر المريج ..... ١٢١
١١ - الإنسان في حالي الخير والشر ..... ١٣٤
١٢ - النعمة حين تغدو نقمة ..... ١٤٧
١٣ - التعامل مع اللغو ..... ١٦٥
١٤ - استماع القول واتّباع أحسنه ..... ١٧٩
١٥ - الإنسان الكنود ..... ١٩٥

IslamicMobility.com

In the age of Information
Ignorance is a choice

*"Wisdom is the lost property of the Believer,*

*let him claim it wherever he finds it"*

*Imam Ali (as)*